THE BOOK WAS DRENCHED

خديجة

أم المؤمنين

﴿ تأليف ﴾

المصلح الاسلامي الزعيم العربي الشهيد السوري

السيد عبد الحميد الزهراوي

﴿ كتبت لمجلة المنار ونشرت متفرقة فيها ﴾

﴿ وجمعت منها في هذا الكتاب ﴾

(الطبعة الثانية بمصر سنة ١٣٤٥)

مطبعة المنار بمصر

خديجة

أم المؤمنين

﴿ تأليف ﴾

المصلح الاسلامي الزعيم العربي الشهيد السوري

السيد عبد الحميد الزهراوي

﴿ كتبت لمجلة المنار ونشرت متفرقة فيها ﴾

﴿ وجمعت منها في هذا الكتاب ﴾

(الطبعة الثانية بمصر سنة ١٣٤٥)

مطبعة المنار بمصر

يطلب من شرف الدين واولاده بهندى بازار بمبئ نمبر ٩

مقدمة الطبعة الثانية

للناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا * وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلوة وآتين الزكوة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا * واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ان الله كان لطيفا خبيرا * إن المسلمين والمسلمت والمؤمنين والمؤمنت والقنتين والقنتت والصدقين والصدقت والصبرين والصبرت والخشعين والخشعت والمتصدقين والمتصدقت والصئمين والصئمت والحفظين فروجهم والحفظت والذكرين الله كثيرا والذكرت أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما (سورة الاحزاب ٣٣: ٣٢–٣٥)

ان الاطلاع على سير عظماء البشر من الرجال والنساء، أعظم وسائل التربية والتهذيب لان مدار رحاها على قطب التأسي والاقتداء، فلا شيء يفعل في جميع الأنفس فعل الاسوة

وقد كثرت في هذه السنين المطبوعات العربية ولكن أكثرها يفسد أخلاق من يقرأها ويبلبل أفكارهم وآراءهم، وأشدها إفساداً وبلبالا تلك القصص الوضعية التي يسمونها الروايات، وأشد قرائها شغفا بها أكثرهم غواية نفس واضطراب فكر بها وهم الفتيان والفتيات

وقد قصر سلفنا وفضلاء خلفنا في تصنيف القصص والسير التي تصلح للمطالعة بأسلوبها السهل المشوق وموضوعاتها النافعة المقومة للاخلاق المنورة للافكار ، ولعل هذه السيرة الشريفة لتلك السيدة الجليلة التي اشتهرت في عهد الجاهلية بلقب « الطاهرة » وكانت في عصر الاسلام أولى أنصاره، ومصابيح أنواره ، من افضل ما كتب في هذا الشأن وأنفعه

وأما الكاتب لها فهو السيد عبد الحميد الزهراوي احد افراد النابتين ، وأفذاذ المصلحين ، وشهداء الوطنيين السوريين ، وعلمائهم المستقلين ، وكتابهم المجيدين ، قدس الله روحه ، وسقى صيب الرحمة الواسعة ضريحه ، وانني لا اعرف احدا من فضلاء هذا العصر أجمع الذين عرفوه من جميع طبقات الناس وشعوبهم ومللهم على الاعجاب بأخلاقه وشمائله كما أجمعوا عليه

ولعل هذه السيرة أفصح ما كتبه عبارة ، وأوضحها اشارة ، وأظهرها مغزى ومراداً ، فهو قد جلا فيها المعاني الدقيقة من اصول العقائد والايمان بالغيب في معارض من البيان ، تفوق في جمالها معارض عرائس الغوان ،

وليست السيرة كلها في خديجة نفسها فان المروي في شأنها قليل إذ كانت في عصر الامية الجاهلية وعهد ضعف الاسلام في أول نشأته ، وإنما صارت سيرتها كتاباً حافلا بخلاصة تاريخية أدبية استنبطها الكاتب من تاريخ قريش في عاصمتهم (أم القرى) وما كان من ارتقائهم الأدبي واللغوي والاجتماعي والتجاري والسياسي الذي استعدوا به لظهور الاسلام فيهم — وبخلاصة اخرى خير منها في حكمة الأخلاق والفضائل وسلامة الفطرة والحضارة — وبخلاصة ثالثة أعلى منها في معنى الروح والوحي وعناية الله تعالى وتكريمه للبشر بافاضته ما شاء من العلم على من اختص برحمته منهم لاجل هدايتهم وإعدادهم لحياة اسمى من حياة الدنيا وخير وأبقى

كل خلاصة من هذه الثلاث مقصودة للكاتب رحمه الله بذاتها ، فقد كان يريد أن يذكر النابتة العربية بمجد قومها إذ رآها تتعلم في مدارس الترك ومدارس الافرنج ولم يكن للتاريخ العربي نصيب من هؤلاء ولا من تلك بل كان لكل منهما غرض سياسي في طمس تاريخ العرب وتاريخ الاسلام معاً وانما كان مجد العرب الاعظم بالاسلام ومجد الاسلام الصحيح بالعرب

وكان يتوخى تقوية الروح الاسلامي في كل نابتة اسلامية للإبرام من تنشئة المدارس

المصرية لهم على الافكار المادية، ومعاداة الفضائل الروحية، وإضعاف الجامعة الأسلامية،
وكان له وراء هذا وذاك غرض آخر ذكره في اهدائه للسيرة الى روح والدته - ألا وهو عناية المسلمين بتربية البنات وتعليمهن ما تتوقف عليه حياة الملة ونهضة الامة في هذا العصر

فهذا كتاب اسلوبه اسلوب القصص والروايات، تلذ قراءته للناشئين والناشئات، ولكن معانيه ومسائله من لباب العلوم العالية التي تفيد الراسخين في العلم والراسخات، فهو من خير كتب المطالعة لقارئي اللغة العربية وقارئاتها، وكتب الحكمة الدينية لطالبيها وطالباتها،

إن الآيات التي توجنا بها صدر هذه المقدمة قد خاطب الله تعالى بها نساء رسوله خاتم النبيين، بعد وفاة السيدة خديجة ام المؤمنين، ولكنها تشاركهن فيما فضلهن تعالى به من كونهن لسن كسائر النساء، بما لهن من مقام الاسوة الحسنة، وبما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة، وتفضلهن كلهن في مساعدته صلوات الله عليه وسلامه على نشر الدعوة، والنهوض باعباء الملة، والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، في عهد شدة الجهد ومقارعة الاهوال

وقد قفى عز وجل على تلك الآيات، بآية (ان المسلمين والمسلمات) التي أشرك فيها النساء مع الرجال، فيما أعده من الجزاء على صالحات الاعمال، وأحاسن الاخلاق وعقائل الفضائل والخلال

طبعت هذه السيرة الجليلة الطبعة الاولى فى عهد مؤلفها رحمه الله تعالى سنة ١٣٢٦ وقد نفدت نسخها منذ بضع سنين أو أكثر، وكثرت مطالبة الناس لنا باعادة طبعها فلم يتيسر لنا ذلك الا في أواخر هذا العام (١٣٤٥) وقد كثر سواد المتعلمين من المسلمين عامة والعرب خاصة ولاسيما العرب المصريين أو مسلمي المصريين، فعسى أن يكون الاقبال على قراءتها على نسبة الزيادة في عدد القارئين والقارئات، وان كنا نعلم ان الكثير من الفريقين قد تعلم تعليما افسد العقائد والاخلاق، وجنى على الفضائل والآداب. وارجو من كل قارىء لها ومستفيد منها ان يدعو لمؤلفها وناشرها بحسن الثواب، والحمد لله واليه المآب، ونسأله ان يؤتينا الحكمة وفصل الخطاب(وما يتذكر إلا اولو الالباب)

صديق المؤلف

محمد رشيد رضا

*

اهداء المؤلف السيرة الى روح والدته

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ذكر الله تعالى والثناء عليه والشكر له قبل كل شيء ﴾

دخل هذه الدار عدد لا يحصى من بني آدم بمجموعهم عمرت القرى والامصار، وتحركت أقلام العلوم والاعمال ، وتعاقبت أسلاك الاجتماع والاحوال، وإذا فتحت كتب السير والتاريخ لاتجد ذكراً لعُشر من دخلها ولا لعشر عشرهم ولا للواحد في الألف ،ولا للواحد في ألف الالف منهم، فماذا يُعني المؤرخون بهذا القليل من بني آدم ويهملون الكثير منهم ؟

ليس بعجيب ماصنع المؤرخون فان الاكثرين من بني آدم متشاكلو السيرة ، متشابهو الحالة والغاية ، على مابين سيرهم من التغاير ، وبين أحوالهم من التفاوت ، وذلك ان حاصل أمرهم تعب وكد ومزاحمة وحيرات وحسرات في تحصيل ما اشتهوا أوتعودوه من المطالب جل أو حقر، فماذا عسى أن يذكر المؤرخ من حكايات هؤلاء التي يمكن أن تكتب كلها هكذا « جاؤا إلى هذه الدنيا فاشتغلوا بأسباب معايشهم وعاشوا خاضعين للغالب وذهبوا غير تاركين أثراً في هذه الدار إلا ان كان ولداً على شاكلتهم »

وأما اولئك الافراد القليلون الذين لهم بعد مماتهم وجود ظاهر بالآثار فان في سيرهم للتاريخ ذخراً من غرائب الاستعداد الانساني ،وبدائع مظاهره،وجلائل مآثره ، وأمثلة التفاوت بين أفراده ، والارتقاء والتكامل في مجموعه ،بواسطة آحاد من جملته، وبذلك يستمد التاريخ جدته كل يوم، ويأخذ المزيد لرونقه عند كل فرد وكل قوم

وأولئك الافراد صنوف : فرسول مبشر ، وحكيم مبصر ، وكاتب مفكر ، وشاعر مذكر ،وفاتح مغير ،ومخترع محير ، وكاشف منور،وباحث مصور،واجتماعي محوّر ،وشرعي مقرر ،ونصاح مبرر،ولساني مفسر، ومفضال ميسر

هؤلاء الصنوف أقطاب التاريخ على أخبارهم يدور ، وما ثرهم مشارقة منها يستمد النور، ووراءهم في الذكريأتي من اشتهروا بخلق من الاخلاق ، ومن عرفوا في عشيرة بطيب الاعراق ، ومن هنا يظهر لنا أن الشهرة ليست بشيء عند التاريخ إذا لم تؤيد بمآثره ولولا هذا لتعب المؤرخون في سرد أسماء كثيرة لا يستطيعون ان يبيضوا وجوه دفاترهم بشيء من اعمال اصحابها ممن كانوا كبارا في العيون لانهم ابناء أماجد مثلا ، وهم لم تجد لهم همة ، ولم تؤثر عنهم منقبة ؛ ويظهر لنا ايضاً ان إعراض التاريخ عن ذكر من لم تبهر مآثرهم هو احسن درس في الاخلاق ألقاها علينا المؤرخون عن عمد او بالتصادف وذلك لان النفوس انما يغريها بالباقيات الصالحات تذكار اهلها وتمداحهم ، وإنما ينهيها عن الخمول سرعة انطفاء الخاملين ، وطول إشراق الباقي ذكرهم في العالمين

ثم ان من لهم الباقيات الصالحات التي يبقون ويذكرون بها هم أفعل الحداة بالنفوس وأنهض بها الى المكرمات فحكاية احوالهم هي افضل مآخذ الاخلاقيين الذين يجتهدون في ان يفهموا قارئيهم كيف يتكمل الانسان وكيف يصير من الاقطاب اقطاب التاريخ

***

اللهم إني استسقي جودك وإحسانك لأرواح المؤرخين الذين تركوا كنوزاً كثيرة لنفوسنا من سير الأقطاب من آبائنا ؛ وأستغفرك عن زلة زلها اكثرهم من حيث لا يشعرون وهي إهمالهم كثيراً من سير الاقطاب من امهاتنا

لقد علمنا ان الفرق ليس بكبير في الفطرة بين الرجل والمرأة ، وليست المرأة محرومة من المزايا التي يعلو قدر المتحلي بمثلها من الرجال ، ذلك أنا نرى لهن عقولا سليمة ، وقلوبا كريمة ، وهمما عظيمة ، وهل للرجال بنا يسمو للمكارم غير هذه العقول والقلوب والهمم ؟ ونرى الاديان اعتبرت المرأة كالرجل في التكليف بالعقيدة والعبادة والآداب . ونرى الاجتماع اعتبر المرأة كالرجل في التكليف بالعمل ومازال نصيبها منه كبيراً أو تابعاً لتقسيم الاعمال على حسب مرتبة محيطها من العالم ، ثم على حسب مرتبتها من محيطها . وهذا غير مانعلمه من فضل بعض الفاضلات الماضيات اللاتي تصلح سيرهن أن تكون هدى للرجال قبل النساء ، ولولا تلك الزلة التي ذكرناها للمؤرخين لكان اللاتي نعلمهن أكثر وما اللاتي نعلمهن الآن من الفاضلات بقلائل

من هؤلاء سيدة قد سمع بفضلها العالم كله ولكن العارفين بتفاصيل فضائلها ومزاياها قليلون . الشرق سمع بهذه السيدة والغرب ، الترك يعظمون اسمها والعرب ،

وفارس والهند ، والافغان والسند، وفي ارض الصين تعظم ،وفي الدنيا الجديدة تكرم، وإذا فتحت دفاتر المؤرخين عفا الله عنهم لا تجد فيها تحت اسم هذه السيدة الجليلة الا كلمات يسيرة في ترجمة حالها ،وشرح خلالها، ولكننا نحن شاكرون على هذه الكلمات التي يملأ سناها العقول والقلوب فنهتدي بها على قلتها إلى عظيم أمرها كما يدرك المبحرون عظمة المنار إذا كانت أشعته عظيمة السطوع

ولقد كنت تفكرت في أن أكافيء والدتي بعض المكافأة فتبينت بعد طول التفكر ان عظيم فضلها علي هو أبعد من أن يوفى شيء من حقه، ولكن تراءى لي انه يسرها أن أعلن للملاءِ فضل جنسها وأذكرهم بما نسوه من احترام حقوق هذا الجنس، ولم أجد أحسن طريقة إلى هذه الغاية الجليلة من شرح سيرة هذه السيدة التي هي إحدى جداتها

فمن مدد تلك الكلمات القليلة التي تركها لنا المؤرخون في ترجمة حال هذه السيدة أؤلف هذه القصة الحقيقية ، وإلى روح والدتي أرفعها هدية على راحة خشوعي وضعفي، ومن خزائن رحمة الله ورضوانه أستنزل تحية طيبة مباركة لهذه الروح البارة

ومن راقه هذا المؤلف الصغير وحصلت له به لذة وفائدة فلي حق أن أرجوه شيئا ولا أرجوه الا أن يكون مساعداً في إقامة حقوق المرأة وكرامتها وآدابها . ان النساء امهاتنا معشر الرجال وعلى حسب تربيتهن نكون ، فلنطلب من محيطنا أن يهذب بالعلم الأمهات ويسعى لترقية مداركهن وآدابهن

عبد الحميد الزهراوي



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل ثلاثة عشر قرناً على الحساب القمري حدث في الكون حادث عظيم جداً لم يحدث بعده مثله الى الآن ، كان له دوي قوي وأثر كبير في آسيا وأوربا وأفريقيا . وخلفه انقلاب عظيم في ممالك الارض وتغير جسيم في أحوال الامم والشعوب ؛ ذلك الحادث هو قيام العرب بعقيدة جديدة وانضمامهم جميعا إلى كلمة النبي الذي قام فيهم منهم وهو محمد عليه الصلاة والسلام ؛ وشروعهم جميعاً بالهجوم على الممالك ، وفوزهم بهذا الهجوم ؛ وانتصارهم وغلبتهم على الامم ، وانضمام أمم كثيرة إلى عقيدتهم ، وتكوّن ملكهم العظيم من حدود الهند الى البحر الاطلانتيكي شرقا وغربا ومن سواحل البحر الاحمر الى سواحل بحر قزوين شمالا وجنوبا في أسرع ماعرف في التاريخ كله من الفتوحات الكبيرة السريعة

هذا الحادث العظيم يتلقاه بعض الناس بغير تفكر كأنه معتاد الحدوث كثيرا ، فلا يبحث هؤلاء عن سر حدوثه ولا يريدون أن يستفيدوا من التدبر والتفكر بسر ذلك النجاح العظيم الذي أوتيه أولئك القوم بسرعة

جديرة أن نشبهها بلمح البصر . وبعضهم يتلقاه كما هو أي يفهم أنه حادث من أكبر الاحداث التي حدثت في الدنيا ويراه جديرا بالبحث والتأمل وامعان النظر، ولدى التأمل نجد هناك جزئين تم بهما هذا الحادث العظيم الاول النبي محمد عليه الصلاة والسلام والثاني الذين آمنوا به ونصروه من العرب . وبديهي أن أول مؤمن به هو صاحب الفضل الاول بعد النبي في إقامة هذا الصرح العظيم

ومن الامور التي يحق أن يفخر بها جنس النساء ان هـذا الفضل الاول أي السبق بالايمان به والموافقة له كان نصيب سيدة من أشراف قومه هي زوجه السيدة خديجة بنت خويلد من قريش . ولما كانت سيرة هذه السيدة الشريفة المساعدة في وضع الاحجار الاولى من هذا الحادث العظيم لا تخلو بالبداهة من فوائد جسيمة أزمعت أن أقدم في هذه الاوراق لمحبي الفوائد الادبية والاجتماعية والسياسية والتاريخية أعظم هدية مقتطفا هذه الثمرات من دوحة حياة هذه السيدة الجليلة ولكن رأيت من اللازم جدا قبل دخولي بالقارىء على سيرتها ان أمرّ به مرة على قومها العرب عامة ثم قريش خاصة فان تعرفه بهم يساعده على معرفة هذه السيدة الجليلة

***

العرب

العرب كسائر الامم أوائلهم مجهولة ، وأحوالهم منذ عرفوا معروفة ، نقف الآن عند هاتين الكلمتين ونلتفت قليلا الى مبحث لطيف نختصر فيه الكلام ثم نعود الى سياق حديثنا

يزعم كثير من الاقوام أنهم يعرفون أصول أمتهم الى أبي البشر الاول ومن الاقوام من يزعمون أنهم يعرفون سلاسل أصول الامم كلها حتى يصلوا بها الى ذلك الاصل الاول

ومن التزم التحقيق لايستطيع أن يجزم بشيء مما يذكر عن تلك الاصول والاوائل . ومن تسامح بتصديق مايروى يتشابه عليه الامر فيحار في تصديق المتناقضات ، والترجيح بين المختلفات . ومهما جنح الحريص على المعرفة الى الاستئناس بما يمكن قبوله من الحكايات في هذا الباب لايستغني عن طرح كثير منها مما تقوم الادلة على بطلانه

لماذا حرص كل الشعوب على معرفة أسلافهم الى أول أصل ؟ لاندري ولكن يلوح لنا أنه لذت للاكثرين دعوى هذه المعرفة فابتدع كل قوم اسطورة في بيان أصلهم ينقلها الآباء للابناء ويسطرونها في كتبهم تسطيراً

أما الباحثون عن أنساب الشعوب فلما يئسوا من هذه المعرفة قنعوا بأن تكون لهم معرفة مابأصول الشعوب التي وجدوها متقاربة في اللغات وغيرها من المميزات وقد آنسوا من كثرة البحث والاستئناس بالمنقول ان البشر المعروفين اليوم هم من ثلاث سلالات (١) الساميةو (٢) الاريانية و (٣) التورانية

وظاهر من هذا أنهم لما أرادوا وضع أسماء للاصول القليلة التي تفرعت منها هذه الشعوب المعروفة تساهلوا بقبول بعض مالفق في حكاية البشر مماقبل التاريخ ولكن هذا لا يروي في الحقيقة غليل المحققين ولا غليل الخياليين فسيظل المحققون صابرين على جهل مثل هذا ، ويبقى

الخياليون مستمسكين بما قد حكي لهم من قبل وربما تسلى محب الحقيقة عن احتجابها برؤية تماثيلها وماتماثيلها الا أساطير الاولين

أما نحن فنرى أنه لا حاجة للتسلي بتلك الاساطير لاننا اذا اشتهينا المعرفة فأمامنا مما قد نستطيع معرفته ماتنفد مراحل أعمارنا من غير أن نقطع في ميدانه شوطاً بعيداً ، وما الوصول الى غاية في هذا الميدان مما يجوز أن نطمع فيه

فاذا أردنا الآن أن نعرف العرب فعلينا قبل كل شيء أن نريح أنفسنا من الطمع بمعرفة سلسلتهم الآدمية الى آدم أو الى نوح بالتفصيل كما قطعنا طمعنا من معرفة ذلك في سائر الامم فلهذا لا حاجة الى مايذكره علماء الانساب من كون هذا الجيل من الاجيال السامية اذ يقال أنى لهم العلم بسام أبي الشعوب السامية وكيف يبني أهل الفن مبادىء على شيء غير معروف بالطرق التي تفيد العلم اليقيني؟ وما أغنى من يريد أن يعرف جيلا كالعرب عن الاستعانة بأساطير الاولين

***

يقول المؤرخون إن العرب ثلاثة أقسام (١) بائدة و(٢) عاربة و(٣) مستعربة ، اما البائدة فهم العرب الاول الذين ذهبت عنا تفاصيل أخبارهم لتقادم عهدهم وهم عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، وجرهم الاولى ، وأما العرب العاربة فهم عرب اليمن من ولد قحطان ، والعرب المستعربة هم ولد اسماعيل بن ابراهيم

هذا قولهم . وهو لا يعجبني لان البائدة ليست موجودة حتى تعدّ وان كانوا يعدونها لان منها اشتق غيرها فهذه شهادة بأنها لم تبد . وقد

ذكروا في هذا التقسيم عرب اليمن من ولد قحطان قسما مستقلا ولم يذكروا لنا ممن هو قحطان هذا . وذكروا أولاد اسماعيل بن ابراهيم قسما مستقلا ولم يأتوا بدليل قويم على أنه تفرع من اسماعيل ذرية مستقلة هم العرب المستعربة . وجل ماذكروه ان اسماعيل الذي كان غريباً في جوار مكة المكرمة تزوج بامرأة عربية من تلك القبائل التي كانت حولها - فهل انقطع نسل تلك القبائل حتى أصبح لايذكر إذا ذكر العرب ثم تبارك نسل اسماعيل الغريب وحده حتى صار قسما مستقلا هو ثالث ثلاثة أو ثاني اثنين إذا ذكر العرب ؛ لسنا ندري ولكننا نعرف أن هذا من جملة الاقوال التي تكتسب بكثرة الموافقة في مرور القرون صبغة لاتزول فتغر الاكثرين وهي في الحقيقة لاتصبر على النقد والحك فليت أولي الالباب يكثرون من حك هذه المشهورات

وانما يعجبني جداً في هذا الباب ماروي من أن النبي العربي عليه السلام كان إذا انتسب يقف عند عدنان ولايتجاوزه ويقول «كذب النسابون »[1] ويعني بذلك الذين يزعمون معرفة الانساب الى آدم أو الى نوح

وأما الذي لايغير النقد من سطوع جوهره شيئا فهو أن العرب يوم ظهر فيهم النبي الذي أعلى شأنهم كانوا متفرقين في أقطار جزيرة العرب ومنقسمين قبائل كل قبيلة تذكر لنفسها نسباً تقف فيه عند رجل معروف لديها وتمسك عما وراءه .والمشهور أن لقبائل الحجاز أصلا ، ولقبائل اليمن أصلا آخر ؛ وللقبائل بعد ذلك أصول متفرعة من أحد الاصلين .

---

(١) رواه ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس وتتمته : قال تعالى « وقرونا بين ذلك كثيراً »ولكن ثبت في أحاديث أصح من هذا أنه (ص) من ذرية اسماعيل وخاطب الله تعالى قومه بقوله (ملة أبيكم ابراهيم) وكتبه محمد رشيد رضا

وعرب العراق والشام ترجع الى أحد هذين الاصلين أيضا ، فعدنان هو أبو عرب الحجاز غالبا، وقحطان هو أبو عرب اليمن والعراق والشام غالبا

وإن قال قائل كيف نعرف هذا عن العرب وهم أهل بادية متشتتون متفرقون ، متقاتلون متذابحون ، لا ملك لهم جامع ، ولا شرع فيهم وازع، ولا يد لهم في الاعمال الاجتماعية، ولا نصيب لهم في الشؤون السياسية، وليس لهم قبل الاسلام كتاب معروف تدون فيه اخبارهم ، وتذكر فيه مآثرهم وآثارهم ، فمن أجل ذلك لا تجوز الثقة بما ينقل ويحكى عنهم ولسنا نعرفهم إلا بالاسلام ، فالاسلام قد جمع الاوزاع من أهل هذه اللغة الواحدة على كلمة الغزو ، وهذا لا يثبت أن العرب كانوا يعرفون لقبائلهم أصولا وانهم كانوا يتعارفون بأنسابهم»

نقول لصاحب هذا القول إن العرب لم يكونوا مجهولين ولا مجهولة أخبارهم، فاذا قلنا انهم لم يكونوا أهل كتابة وتاريخ فأشعارهم المحفوظة المنقولة هي ديوان سيرهم ، واذا لم نثق بنقل أشعارهم استطعنا أن نعرف العرب من تاريخ الامم المجاورة لهم . فالفرس قد سبروهم لان من العرب ملوكا كانوا لهم خاضعين ، وقوادا كانوا بأمرهم عاملين . والروم قد خبروهم لان في مملكتهم ملوكا وقوادا وولاة من العرب ، والديانة المجوسية تعرفهم لان منهم من كان على دين ملوك فارس ، والكنائس تعرفت بهم لان منهم نصارى بل قسيسين ورهبانا، وبيع اليهود ما جهلتهم، والفلسفة ما أنكرتهم ، والحضارة قد ألمت بمساكنهم (في اليمن والعراق والشام) ومخالطة الامم أخذوا بقسط منها وأخذت بقسط منهم، فكيف يكون هذا الجيل مجهولا بعد كل هذا ؟

إن العرب كانوا معروفين . ومما عرفوا واشتهروا به الحرص على وحدتهم القومية فكانوا أمام الغريب أمة واحدة ، لها وحدة باللغة والنسب واتصال الديار والعصبية عند التناصر ، فاذا رجعوا إلى ما بينهم كانوا قبائل شتى تنتمي كل قبيلة الى أب لها ثم يجمع قبائل كثيرة منهم أب واحد وهكذا ولا يستبعد من أمة محتاجة الى التناصر وليس لها كسائر الامم كتاب يجمع أخبارها وسير ابطالها أن يعنى كثير من أفرادها بحفظ ذلك في اذهانهم ، وأية أمة ممن نرى يتناسى أفرادها سيرة أبطالهم ? وقد كان الرجل من العرب اذا عظم أمره أو كثر ماله انفرد بأهله وانتمت اليه الذرية ووضعوا لأنفسهم نسبة جديدة من غير أن يضيعوا حظهم من الارتباط بالنسبة الاولى لان لهم عند التناصر حظا منها عظيما

يذكر أحد علماء هذا الشان أن العرب كانت قبائلهم ارحاء وجماجم فالارحاء هي القبائل التي أحرزت دورا ومياها لم يكن للعرب مثلها ولم تبرح من أوطانها ودارت في دورها كالارحاء على أقطابها ، الا أن ينتجع بعضها في البرحاء وعام الجدب ، والجماجم هي القبائل التي يتفرع من كل واحدة منها قبائل اكتفت باسمائها دون الانتساب اليها فصارت كانها جسد قائم وكل عضو منها مكتف باسم معروف بموضعه

وكان علم النسب من جملة علوم العرب قد أثره عنهم أهل الرواية أول كل شيء . ونقلوا فيه حكايات كثيرة (منها) ما ذكروه عن يزيد بن شيبان بن علقمة بن زرارة بن عدس وذلك انه رأى في منىً رجلا على راحلة ومعه عشرة شباب بأيديهم المحاجن ينحون الناس عنه ويوسعون له

قد نامنه: وقال له ممن الرجل؟ فقال «اني رجل من مهرة ممن يسكن الشجر» [١] قال يزيد فكرهته ووليت عنه فناداني من ورائي: مالك؟ قلت «لست من قومي ولست تعرفني ولا أعرفك» قال «إن كنت من كرام العرب فسأعرفك» قال يزيد فكررت عليه راحلتي وقلت «اني من كرام العرب» قال فمن أنت؟ قلت «من مضر» قال «فمن الفرسان أنت أم من الارحاء؟» فعلمت أنه أراد بالفرسان قيسا وبالارحاء خندفا. فقلت «بل من الارحاء» قال «أنت امرؤ من خندف» قلت «نعم» قال «من الارومة أنت أم من الجماجم؟» فعلمت أنه أراد بالارومة خزيمة وبالجماجم بني أدّ بن طابخة. قلت «بل من الجماجم» قال «فانت امرؤ من بني أد بن طابخة» قلت «أجل» قال «فمن الدواني أنت أم من الصميم؟» فعلمت أنه أراد بالدواني الرباب ومزينة وبالصميم بني تميم. قلت «من الصميم» قال «فأنت اذاً من بني تميم» قلت «أجل» قال «فمن الاكثرين أنت أم من الاقلين أو من اخوانهم الآخرين؟» فعلمت انه أراد بالاكثرين ولد زيد وبالاقلين ولد الحارث وباخوانهم الآخرين بني عمر وبني تميم. قلت «من الاكثرين» قال «فأنت اذا من ولد زيد» قلت «أجل» قال «فمن البحور أنت أم الذرى أم من الثماد؟» فعلمت أنه أراد بالبحور بني سعد وبالذرى بني مالك بن حنظلة وبالثماد امرأ القيس ابن زيد. قلت «بل من الذرى» قال «فأنت رجل من بني مالك بن حنظلة» قلت «أجل» قال «فمن السحاب أنت أم من الشهاب أم من اللباب؟» فعلمت أنه أراد بالسحاب طهية وبالشهاب نهشلا وباللباب بني عبد الله بن دارم. فقلت له «من اللباب» قال «فأنت من بنى عبد الله بن دارم» قلت «أجل» قال فمن

«١» بكسر الشين وسكون الحاء المهملة صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن

البيوت أنت أم من الدوائر ؟ » فعلمت أنه أراد بالبيوت ولد زرارة و بالدوائر الاحلاف . قلت « من البيوت » قال « فأنت يزيد ابن شيبان بن علقمة ابن زرارة بن عدس وقد كان لابيك امرأتان فأيهما أمك ؟

***

ولقد غلط من ظنوا أن العرب لم يكن لهم من حضارة ولم يكونوا على شيء مما عليه الامم من الروابط . كلا بل كان لهم حضارات وملوكهم التبابعة في اليمن معروف أمرهم عند المشتغلين بالتاريخ . وملوك الحيرة (في العراق)مشهورون . من عرف تاريخ الفرس عرفهم وان جهل تاريخ العرب. أولهم مالك بن فهم بن غنم بن دوس من سلالة الازد من ولد كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وكان ملكه في أيام ملوك الطوائف الفارسيين وملك بعده أخوه عمرو بن فهم، ثم ملك بعد عمرو ابن أخيه جذيمة الابرش بن مالك بن فهم وجذيمة هذا هو صاحب الحديث المشهور مع الزباء (زنوبيا) صاحبة تدمر وخلاصة الحديث فيما يروي مؤرخو العرب ان جذيمة قتل أباها فاحتالت عليه الزباء وأطمعته في نفسها حتى اغتر وقدم اليها فقتلته وأخذت بثار أبيها . وبعد قتله انتقل الملك الى يد ابن أخته عمرو اللخمي جد الملوك المناذرة اللخميين .

والملوك الغسانيون في الشام مشهورون أيضا لا يجهلهم من عرف تاريخ الرومان إذا جهل تاريخ العرب . وأصل غسان من اليمن من بني الازد ابن الغوث ، تفرقوا من اليمن بسيل العرم ، ونزلوا على ماء بالشام يقال له غسان فنسبوا اليه ، وكان قبلهم بالشام عرب يقال لهم الضجاعمة من سليح

(وزن مليح) فأخرجتهم غسان من ديارهم وقتلوا ملوكهم وصاروا موضعهم .

وأول من ملك من غسان جفنة بن عمرو بن ثعلبة، وكان ابتداء ملكهم قبل الاسلام بأربعمئة سنة وقيل أكثر من ذلك. ولما ملك جفنة وقتل ملوك سليح دانت له قضاعة ومن بالشام من الروم ، وبنى بالشام عدة مصانع ولما مات ملك بعده ابنه عمرو بن جفنة ، وبنى بالشام عدة ديور منها دير حالي ودير أيوب ودير هند ، ثم ملك بعده ابنه ثعلبة بن عمرو وبنى صرح الغرير في أطراف حوران مما يلي البلقاء . ثم ملك الحارث بن ثعلبة ، ثم ملك بعده ابنه جبلة بن الحارث وبنى القناطر وأذرح والقسطل، ثم ملك بعده ابنه الحارث بن جبلة وكان مسكنه بالبلقاء فبنى بها الحفير ومصنعه، ثم ملك بعده المنذر الأكبر بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة الاول ثم ملك بعده أخوه النعمان بن الحارث ثم ملك بعده أخوه جبلة بن الحارث ثم ملك بعدهم أخوهم الايهم بن الحارث وبنى دير ضخم ودير النبوة . ثم ملك أخوهم عمرو بن الحارث، ثم ملك جفنة الاصغر بن المنذر الاكبر ، وهو الذي أحرق الحيرة ، وبذلك سموا ولده آل محرق . ثم ملك بعده أخوه النعمان الاصغر بن المنذر الاكبر، ثم ملك النعمان بن عمرو بن المنذر ، وبنى قصر السويدا ولم يكن عمرو أبو النعمان المذكور ملكا، وفي عمرو المذكور قول النابغة الذبياني

علي لعمرو نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب

ثم ملك بعد النعمان المذكور ابنه جبلة بن النعمان ، وهو الذي قابل المنذر اللخمي بن ماء السماء : ثم ملك بعده النعمان بن الايهم ابن الحارث ابن ثعلبة ، ثم ملك أخوه الحارث بن الايهم ، ثم ملك بعده ابنه النعمان

ابن الحارث وهو الذي أصلح صهاريج الرصافة وكان قد خربها بعض ملوك الحيرة اللخميين ، ثم ملك بعده المنذر بن النعمان ، ثم ملك بعده أخوه عمرو بن النعمان ، ثم ملك أخوهما حجر بن النعمان ، ثم ملك ابنه الحارث بن حجر ، ثم ملك ابنه جبلة بن الحارث ، ثم ملك ابنه الحارث ابن جبلة ، ثم ملك ابنه النعمان بن الحارث ، ثم ملك بعده الايهم بن جبلة ابن الحارث وهو صاحب تدمر وكان عامله يقال له القين بن خسر وبنى له قصراً بالبرية عظيماً ومصانع. ثم ملك بعده أخوه المنذر بن جبلة ثم ملك بعده أخوهما شراحيل بن جبلة ثم ملك أخوهم عمرو بن جبلة ثم ملك بعده ابن أخيه جبلة بن الحارث بن جبلة ، ثم ملك بعدهم جبلة بن الايهم بن جبلة ، وهو آخر ملوك بني غسان ، وهو الذي أسلم في خلافة عمر ثم عاد الى الروم

***

ومن ملوك العرب ملوك كندة الذين من سلالتهم امرؤ القيس الشاعر المشهور أولهم حجر آكل المرار بن عمرو وخلف على الملك ابنه عمرو المقصور سمي بالمقصور لانه اقتصر على ملك أبيه ثم ملك بعده ابنه الحارث بن عمرو وقوي ملك الحارث المذكور لانه وافق كسرى قباذ بن فيروز على الزندقة والدخول في مذهب مزدك فطارد قباذ المنذر ابن ماء السماء اللخمي من ملك الحيرة وملك الحارث المذكور موضعه فعظم شأن الحارث المذكور فلما ملك انوشروان أعاد المنذر وطرد الحارث المذكور فهرب وتبعته تغلب وعدة قبائل فظفروا بأمواله وبأربعين نفساً من ذوي قرباه فقتلهم المنذر في ديار بني مرين وهرب الحارث الى ديار كلب وبقي بها حتى مات . ومن أولاد الحارث هذا حجر أبو امريء

القيس الشاعر وكان حجر قد ملكه أبوه على بني أسد ابن خزيمة فبقي أمره متماسكا فيهم مدة بعد ذلك ثم تنكروا عليه فقاتلهم وقهرهم ودخلوا في طاعته ثم هجموا عليه بغتة وقتلوه غيلة وفي ذلك يقول ابنه امرؤ القيس أبياتاً منها

بنو أسد قتلوا ربهم ألا كل شيء سواه جلل

وطالب امرؤ القيس بهذا الملك بعد أبيه فاستنجد ببكر وتغلب على بني أسد فانجدوه وهربت منهم بنو أسد وتبعهم فلم يظفر بهم ثم تخاذلت عنه بكر وتغلب وتطلبه المنذر بن ماء السماء فتفرقت جموع امريء القيس خوفا من المنذر ، وخاف امرؤ القيس منه أيضا فصار يدخل على قبائل العرب ، وينتقل من أناس الى أناس حتى قصد السموأل بن عادياء اليهودي فأكرمه وأنزله وأقام عنده ، ثم سار الى ملك الروم مستنجدا به وأودع أدراعه عند السموأل وكانت مئة وفي مسيره إلى ملك الروم قال قصيدة تشعر بلسان حاله ومنها قوله

تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وقد مات في هذا السفر بعد عودته من عند قيصر

فبالله كيف تكون مجهولة الامة التي فيها الملوك والاقيال ، وقد وقفت أمام الأمم والأجيال سنين من الدهر ، لا يعرف لها حصر ، لعمرك إن القول بأن هؤلاء القوم كانوا مجهولين ، وانهم كانوا متشتتين من غير ملك جامع ولا شرع وازع ، هو قول يرسله صاحبه من غير أن يكلف نفسه بحثا وهو لما يحط بذلك خبرا

ومتى كان العرب معروفين عند غيرهم كما أوضحنا ـ ولدينا مزيد ـ كانوا هم أحق بمعرفة أنفسهم وحفظ مفاخرهم وعصبياتهم. وما نقل الينا عنهم من ذلك ليس منه شيء فوق العقل ولا وراء الحس بل القرآئن له شاهدة، وأمثاله أمام أعيننا مشاهدة ، واذا لم تجز الثقة بما ينقل من هذه الاخبار لم يكن غيرها أحق بالثقة لعمر الحق، فان تزوير الاساطير لا يستبعد وقوعه في كل أمة من الامم ذوات الزبر والاسفار ، وليست الكتب أحق بالصدق من القرائن الشاهدة والنظائر الناطقه

فمن شاء ان لا يثق بمنقول البتة لا يضر في رأيه ولا يضر التاريخ والمنقول ولا يضر العلماء الذين يحترمون التاريخ كثيرا او انما يضره وحده يقلل استفادته من المنقول ويكثر وساوسه وغروره . ثم يصل الى درجة لا يثق معها أحد بمقوله.

ومن شاء أن يثق بالمنقول عن الامم دون العرب لا أناقشه لانه شهد لي على نفسه شهادة كافية ولا أزيده شيئا على ما أوضحت به أن العرب تجوز الثقة ببعض ما ينقل عنهم كما تجوز الثقة ببعض ما ينقل عن غيرهم (١)

***

من أجل هذا نؤمن بما نقل الينا من نسب سيدتنا التي نروي هنا سيرتها وهي خديجة القرشية فان هذا النقل من المنقول التي لا تجد النفس حاجة للتردد في قبولها

وقد قدمنا آنفا ان لهؤلاء العرب المعروفين أصلين معروفين عندهم

(١) قد يقال أن الثقة بما كان يرويه النسابون والمفاخرون من العرب في عهد بداوتهم أجدر بالثقة من كثير من رواية غيرهم وتدوينه لما علم بالفعل من جودة حفظهم ومن نقد بعضهم لبعض بالشعر وفي المجامع والحرية التي كانت عندهم ولقلة دواعي الكذب في عهد البداوة بطبعها عند كل الأمم

ومجهول ماوراءهما وهما عدنان وقحطان ، فأما قحطان فقد أخذت ذريته بحظها من الملك لان كل ملوك العرب المشهورين كانوا من ذريته واما عدنان فان حظ ذريته تأخر قليلا ولـكنه كان لعظمه متجاوز النسبة أي انه لا نسبة بين حظ القحطانيين الذين كان يقوم منهم ملوك ثم ينطفيء مجدهم، وحظ اخوتهم العدنانيين الذين أشرق منهم نور مبين بهر العالمين أجمعين.

فلذلك نلم هنا بذكر الذرية العدنانية دون الذرية القحطانية لا ننا نريد ان يتعرف القاريء بقوم خديجة الخصوصيين . ﴿ فعدنان ﴾ ولد له ﴿ معد ﴾ ومعد ولد له ﴿نزار﴾ وأولاد نزار أربعة ﴿ مضر ﴾ وإياد وربيعة وأنمار وقد فارق إياد الحجاز وسار بأهله الى أطراف العراق . ومن ذريته كعب بن مامة الايادي المشهور بالجود وقس بن ساعدة الايادي المشهور بالفصاحة .ومن ذرية ربيعة بن نزار قبائل عنزة وبكر ووائل وتغلب ومن تغلب كليب ملك بني وائل الذي قتله جساس فهاجت لقتله الحرب بين بني وائل وبين بني بكر وبين بني تغلب .ومن بني بكر ابن وائل بنو شيبان ومن مشهوريهم مرة وابنه جساس قاتل كليب وطرفة ابن العبد الشاعر ومن بني بكر بنو حنيفة ومن مشهوريهم مسيلمة الكذاب

وولد لمضر بن نزار ﴿إلياس﴾ وقيس عيلان وكثرت ذرية قيس هذا فمن ذريته قبائل هوازن ومن هوازن بنو سعد بن بكر الذين منهم (حليمة) مرضعة النبي (ص) ومن ذريته بنو كلاب وقبائل عقيل وبنو عامر وصعصعة وخفاجة وبنو هلال وثقيف وبنو نمير وباهلة ومازن وغطفان وبنو عبس الذين منهم عنترة المشهور وقبائل سليم وبنو ذبيان وبنو فزارة وكان بين بني عبس وبني ذبيان حرب داحس التي ظلت أربعين عاما . ومن

بني ذبيان النابغة الذبياني الشاعر المشهور

وولد لالياس بن مضر ﴿مدركة﴾ وطابخة ومن ذرية طابخة بنو تميم والرباب وبنو ضبة وبنو مزينة

وولد لمدركة بن الياس ﴿خزيمة﴾ وهذيل والى هذيل هذا تنتسب جميع قبائل الهذليين ومنهم أبو ذؤيب الهذلي الشاعر المشهور

وولد لخزيمة بن مدركة ﴿كنانة﴾ وأسد والهون وولد لكنانة ابن خزيمة ﴿النضر﴾ وملكان وعبد مناة وعمرو وعامر ومالك فمن ملكان بنو ملكان ومن بني عبد مناة بنو غفار ومن مشهوريهم أبو ذر وبنو بكر. ومن بني بكر هؤلاء الدئل ومن مشهوريهم أبو الاسود الدؤلي وبنو ليث وبنو الحارثة وبنو مدلج وبنو ضمرة

وولد للنضر بن كنانة ﴿مالك﴾ ولم يعرف له ولد سواه وولد لمالك هذا ﴿فهر﴾ وفهر هذا هو الذي سمي قريشاً ولم يولد لمالك غير فهر وولد لفهر ﴿غالب﴾ ومحارب والحارث فمن محارب بنو محارب ومن الحارث بنو الخلج ومن مشهوريهم أبو عبيدة بن الجراح وجميع ذراري فهر يقال لهم قرشيون

وولد لغالب بن فهر ﴿لؤي﴾ وتيم الادرم ومن تيم المذكور بنو الادرم ومعني الادرم ناقص الذقن

وولد للؤي بن غالب ﴿كعب﴾ وسعد وخزيمة والحارث وعامر وأسامة. ومن ذرية عامر بن كعب عمرو بن ودّ فارس العرب الذي قتله علي بن أبي طالب

وولد لكعب بن لؤي ﴿مرة﴾ وهصيص وعدي فمن هصيص بنو جمح ومن مشهوريهم أمية بن خلف وأخوه أبي بن خلف وكلاهما كانا عدوين عظيمين للنبي (ص) ومن هصيص أيضا بنو سهم ومن عدي بنو عدي ومن

مشهوريهم عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد

وولد لمرة بن كعب ﴿كلاب﴾ وتيم ويقظة فمن تيم بنو تيم ومن مشهوريهم أبو بكر الصديق وطلحة ومن يقظة بنو مخزوم ومن مشهوريهم خالد بن الوليد وأبو جهل عمرو بن هشام

وولد لكلاب بن مرة ﴿قصي﴾ وزهرة ومن ذرية زهرة سعد ابن أبي وقاص وآمنة أم النبي (ص) وعبد الرحمن بن عوف وقد كان قصي هذا عظيما في قريش وهو الذي ارتجع مفاتيح الكعبة من بني خزاعة وهو الذي أثل مجدهم

وولد لقصي بن كلاب ﴿عبد مناف﴾ وعبد الدار وعبد العزى فمن بني عبد الدار بنو شيبة حجاب الكعبة ومن مشهوريهم النضر بن الحارث كان من أشد أعداء النبي (ص) ، ومن عبد العزى أيضا سيدتنا خديجة بنت خويلد التي نروي سيرتها

وولد لعبد مناف بن قصي ﴿هاشم﴾ وعبد شمس والمطلب ونوفل فمن عبد شمس أمية ومنه بنو أمية ومنهم عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان مؤسس الملك الاموي. ومن المطلب بن عبد مناف المطلبيون ومن ذريتهم الإمام الشافعي ومن نوفل النوفليون

وولد لهاشم ﴿عبد المطلب﴾ ولم يعلم له ولد سواه . وولد لعبد المطلب ﴿عبد الله﴾ وحمزة والعباس جد الملوك العباسيين (١)

وولد لعبد الله بن عبد المطلب ﴿محمد﴾ النبي عليه الصلاة والسلام

(١) عبارته توهم أن هؤلاء جميع ولده وليس هذا مراد ولكن من الغريب أن ينسى أباطالب وهو يذكر المشهورين ومن اشهر بعد رسول الله «ص» من ابي طالب وولده علي المرتضي وهو يذكر كلما ذكرت سلالة نسب احد ذريته من السبطين الطاهرين

الفصل الاول

مكة وحالة قريش الاجتماعية عند البعثة

نشأت خديجة في بلد شأنه عجيب، قصيّ عن العمران، في واد غير ذي زرع، لا تنساب فيه الامواه، ولا تكتنفه الحدائق، ولا تقوم للصناعات فيه دولة. ولا يجد مبتغي الزخارف لديه مجالا، ولكن أبدله الله جمالا معنويا، وكساه جلالا روحانياً، فالافئدة تهوي اليه، والمطايا تزجى له من كل فج عميق.

هذه البلدة المقصودة هي « مكة » المكرمة الشهيرة التي لا يجهل اسمها وشهرتها أحد، هي أم البلاد العربية واقعة في القطعة المسماة بالحجاز من شبه جزيرة العرب، قائمة بيوتها في سفوح جبال محيطة بها

لم نقف على مقدار عدد نفوسها في تلك الايام التي نشأت فيها خديجة ولكن عدد مقاتلتها لم يكن يتجاوز الالفين في الغالب فيمكننا أن نحزر أهليها اذ ذاك بنحو خمسة عشر ألفا كلهم أولاد أب واحد قد ورثوا باستعدادهم لا بنسبهم هذا المقام الكريم والبلد الشريف ممن كان قبلهم من القبائل. وذلك أن قصي بن كلاب استطاع أن يجمع جميع ذراري فهر بن مالك الى مكة ويزاحم بهم من كان فيها من القبائل فلم تلبث أن صارت لهم خاصة

وفي مكة هذه بيت مقدس قديم العهد يكاد يكون أول أمره

مجهولا عند المشتغلين بالتاريخ اسمه بيت الله أو الكعبة . وكان جميع عرب الحجاز يعظمون هذا البيت أكثر من كل البيوت التي شرفوها ويحجون اليه ، ويتعارفون ويتعاطفون لديه

كانت هذه البلدة المشرفة تضم بين تلك الجبال المهيبة أمة صالحة الاستعداد للرقي متى أريت طريقه كما تضم الصدفة جوهرة لا يظهر بهاؤها ورواؤها حتى تعالج بعض المعالجة وتزال عنها القشور . أما من حيث الحضارة فلم تكن كما ينتظر ابن حضارة هذا العصر من البلدان وانما هي بيوت ساذجة مبنية بالحجارة واللبن ومسقوفة بجذوع النخل خالية من الزخرف

وهذا البلد الامين باق إلى يومنا هذا لم يزدد على طول القرون الا تشريفا وتكريما ، ولم يتغير فيه إلا أشكال الابنية وازدياد التجارة ، والبيت المشرف لم يتغير وضعه ولا وضع الشعائر التي حوله وانما بنيت هنالك زيادات وتحسينات اقتضتها الدواعي

ومكة معدودة اليوم من جملة بلاد الدولة العلية العثمانية بيد انها لم تحرم حتى الآن من أمير عربي يتصل نسبه بسيدتنا خديجة هذه ، ونفوذه فيها وفيما حولها نفوذ تام يستمده من السلطان العثماني ومن احترام العرب لهذه السلالة

ومن الآثار المشهورة الباقية في مكة بئر زمزم ويقولون ان قبيلة جرهم كانت دفنتها ثم احتفرها عبد المطلب بن هاشم جد النبي (ﷺ) وكان ذلك من مفاخر عبد المطلب لانه لم يكن بمكة من ماء إلا في آبار بعيدة عن البيت المشرف فلما أخرج عبد المطلب زمزم في جوار البيت

انصرف الحاج اليها . ولحفر زمزم حديث طويل خلاصته تدل على شغف عبد المطلب بتسهيل الماء على الحجاج . فاذا تأملنا في حرص القوم على مثل هذه العناية بالغرباء وابناء السبيل نعلم شيئا من روح تربية الهمم وترقية العواطف في ذلك المجتمع الذي نشأت فيه «خديجة»

وكان من جيد أمر أهلها في مجتمعهم ذلك أنهم اقتسموا النظر في الامور العمومية فيما بينهم فكأنهم كونوا حكومة جمهورية من غير رئيس عام وكان أمر هذه الجمهورية الغريبة الوضع سائراً على منتهى النظام ولكن لم يكن هذا النظام لسر في ترتيب هذه الجمهورية فانها لا يؤمل منها في حد ذاتها ان تثمر نظاما بالغا منتهى الجودة والقوة وانما ذلك أثر من آثار تربيتهم العمومية فالاخبار كلها دالة على أن القوم بالجملة كانوا كأنهم مفطورون على التضامن التام فلذلك كان من مزايا ذلك الاجتماع الذي لا نعهد له نظيراً أن كل فرد من أفراده تام الحرية لا يشعر بقهر حاكم ولا يخشى سطوة جبار وكل منهم في أمن من فوات الحقوق واعتداء الحدود . الجنايات قليلة ، وكرامة الناس محفوظة . والآداب سليمة ، والحدود غير متجاوزة ، والحقوق مصونة ، وذرائع الفساد مسدودة ، وسلامة الفطر غالبة ، والمزايا التي بها كمال الانسانية راجحة .

فاذا أضفنا إلى كل ذلك احترام الغريب وتوقيره اياهم وتوقيه أذاهم نجد أن ذلك المجتمع لا يكاد يوجد نظيره ولكن مع كل هذا الجمال والحسن والصلاح في هذا المجتمع كان فيه عيوب إذا أزيلت يصبح أول مجتمع راق في الدنيا وخليقاً أن يفيض على جيرانه من بركات العقول التي أشربت بديع جماله ، واشرأبت الى عظيم كماله ، ثم تاقت إلى تمرين العالم على ما كنت

تلك البقعة التي لم تكن شيئا مذكوراً من العقول المنيرة و الارواح العالية

وقد وقع ذلك فان الذي منه تنشأ الاسباب واليه ترجع الامور قد أتاح لهذا البلد الجمهوري من ينظفه من تلك العيوب التي أشرنا اليها فكان بعد ذلك كما هو المنتظر منه أي تم ظهوره فصار مشرقاً لنور عظيم بلغ مشارق الارض ومغاربها فأخذ كل قوم منه بقدر استعدادهم

أما الجمهورية التي أشرنا إلى أنها كانت في هذا البلد فقد أقاموها على أساس يأمنون معه من الزلزال وذلك أنهم رأوا الشرف انتهى إلى عشرة رهط من عشرة بطون لاشتهارهم بأعمال مجيدة ، ثم أجمعوا أمرهم على أن يكون النظر في الامور العمومية من خصائص هذه البيوت العشرة وتراضوا على أن يكون لكل بيت من هذه العشرة وظيفة يختص بها تعد من مفاخره، فهم بهذا الصنيع قد أخذوا بشيء من أصول حكم الاشراف، وبذلك أعطوا الاعمال التي يمجد بها الفرد أو الاسر قحقها من التكريم والتشريف ، ليزداد نشاط أربابها وحرص غيرهم على التشبه بهم وأخذوا أيضا بشيء من أصول الحكم النيابي وهو أعظم الآيات على وجود التضامن الذي هو أحد الاركان التي يحفظ بها سعادة الامم

أما الشورى فقد وفروا منهم حظها ،وعظموا في أنفسهم حقها، و ا كانوا يشرعون مايشرعون من الاحكام والحدود : ويفصلون مايفصلون في بعض القضايا والحقوق

وقد ألغوا الرئاسة العامة من بينهم كأنهم عدوها لغواً إذا صدقوا في تضامنهم وصلحوا في تشاورهم وارادتهم الحق ،وقليلة الجدوى إذا مرض تضامنهم ووهى نظامهم .أو أنهم خشوا أن يكون حب الرئاسة إذا وجدت

مدعاة لكثرة تنازعهم وتنافسهم فلا يأمنون بعد ذلك كثرة الفشل والشقاق وسقوط الهيبة من نفوس الغرباء ووقوع الفتور في نفوس الاقربين. أو أنهم أنفوا أن يملكوا عليهم أحداً لانهم كلهم يحملون بين أضالعهم نفوس الملوك. وجمهوريتهم هذه لم يكن لها رئيس عام ولكن كانوا يقيمون واحداً في وظيفة رئيس عام موقتاً

أهل هذا المجتمع اللطيف لم يكونوا أولي شغف بالمحاربات فعلاقتهم الخارجية مع جيرانهم من القبائل وأهل القرى والبلاد كانت حسنة ولكن هذا لم يقعدهم عن أن يكون استعدادهم تاما لما ينزل بهم. فان نزل بهم مايطيقونه كشفوا اللثام عن قوتهم وبرزوا من غير تريث، وإن نزل بهم مالا قبل لهم به تريثوا وعمدوا إلى الاناة، وفتقوا من الحيلة أبوابا يخرجون منها إلى السعة من الضيق، ومن فل الجيوش بالحسام إلى فلها بالبيان، وقد أعطوا من هذا حظا عظيما.

ومن أشهر حوادثهم الخارجية التي ضاقوا بها ذرعا هجوم القائد الحبشي (أبرهة) الذي كان غلب على بعض بلاد اليمن فقد دهمهم بجيش عظيم لم يروا لانفسهم طاقة به فقابله عبد المطلب جد النبي ﷺ وكان يومئذ رئيس قريش فأحسن مقابلته ولطف بعض الشيء من حدته التي كان بها مسوقا لهدم « بيت الله » على زعمه لاسباب فصلها رواة الاخبار ثم أصابته داهية سماوية فقفل بجيشه ثانيا عزمه لانه رأى في أهل هذا البلد مالم يكن يخطر له في بال

ثم رأى في مقدمه هذا على هؤلاء القوم عجبا من الامر وذلك أنه لما أتاهم أرسل اليهم رجلا حميريا كان معه اسمه حناطة وأوصاه أن

يسأل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها فيبلغه أن الملك لا يريد الحرب وانما جاء لهدم هذا البيت فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فدلوه على عبد المطلب بن هاشم فجاءه وبلغه ماأمره به أبرهة فكان جواب عبد المطلب اننا لا نريد حربه . قال حناطة إنه أوصاني بأنه يريد مواجهتك ان لم تريدوا الحرب فانطلق عبد المطلب مع حناطة اليه فلما رآه أبرهة رأى الوسامة والجلال فأعظمه وأكرمه وأخذه إلى جانبه وقال للترجمان سله أن يقول مايبدو له فلم يكن من عبد المطلب إلا أنه صرف لسانه عن الخوض في عزم القائد على هدم البيت وجداله فيه . بل أظهر الاقتناع بضرورة المسالمة وعدم معارضة القائد في أمر هذا المعبد وقال له إذا لم يكن لك غير هذا الأرب فرد علينا إبلنا . قال أبرهة للترجمان قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في الاموال وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك ، فأجابه عبد المطلب إننا نحن أرباب المال وأما البيت فله رب هو سيمنعه . فقال له إنه ماكان ليمتنع مني ، فأجابه أنت وذاك ، ورد أبرهة الابل على عبد المطلب وبقي مصراً على عزمه ، ورجع عبد المطلب على قريش فأمرهم أن يعتصموا بالجبال ، ولا يأتوا أمراً حتى يروا ماذا يكون ، وقد أتى من لدن العناية الغيبية مالم يكن في الحساب ، فان أبرهة لما أصبح وتهيأ لدخول مكة برك الفيل الذي كان يركبه وحرن وأتوا كل باب من أبواب الحيل ليقوم ويمشي تلقاء مكة فلم يقم ، ثم رأوا حجارة تسقط عليهم من أرجل صنف من الطير فتشاءم أبرهة وتذكر ماأنذره به ذلك الرجل الجليل السني الطلعة (عبد المطلب) من حماية هذا البيت بطريقة لا يبلغها عقله فخمدت

في صدره جذوة الحدة والتهور وخذل أمام هؤلاء القوم الذين حاربوه بالسلم، ورموا عقله بسهم نافذ من بيان عبد المطلب مع رمي الطير جيشه بحجارة من سجيل

وهذه أكبر حوادثهم الخارجية واشهرها. وفي عام هـذه الحادثة ولد النبي (ص) وقد سموه عام الفيل لما ذكرنا من قصته. ورجال هذه الحملة قد عرفوا بعدها باسم أصحاب الفيل وقد أشير الى بجمل هذه الحادثة في القرآن المجيد

الفصل الثاني

{ بيوتات قريش وخصائصها }

أما بيوت شرفهم العشرة فهي :

هاشم ، وأميـة ، ونوفل ، وعبد الدار ، وأسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعدي ، وجمح ، وسهم

واما الامور التي كان توليها من خصائص هؤلاء فهي : السقاية ، والعمارة ، والعقاب، والرفادة، والحجابة ، والسدانة، والندوة، والمشورة، والاشناق ، والقبة، والاعنة، والسفارة ، والايسار، والاموال المحجرة ،

هـذه الاسماء أكثرها اصطلاحي يحتاج الى تفسير يوافق العصر الذي نحن فيه حتى نفهم شكل ذلك المجتمع الذى سميناه جمهوريا على حسب اصطلاح عصرنا

فأما السقايه فقد تفهم من اللفظ نفسه أي سقاية الحجاج الذين كانوا

يأتون « بيت الله » من كل جانب ولا يخفى على أحد ان العناية بهؤلاء الغرباء وتوزيع المياه عليهم من أهم الامور العمومية في ذلك الظرف وكان بنو هاشم هم أهل هذه الوظيفة

واما العمارة فهي منع من يتكلم في « بيت الله » بكلام سفيه قبيح أو يرفع فيه صوته وكانت هذه الوظيفة أيضا في بني هاشم الذين منهم العباس صاحبها

واما العُقاب فهي راية قريش كان من شأنهم فيها انهم يحفظونها في بيت من البيوت العشرة فاذا وقعت حرب أخرجوها فان اتفقوا على أحد منهم اعطوه راية العقاب وان لم يجتمعوا علي أحد رأسوا صاحبها فقدموه وقد كانت هذه الوظيفه أي حفظ هذه الراية من خصائص بني أمية الذين منهم أبو سفيان صاحبها

واما الرفادة فمناها الاسعاف وكانوا يجمعون من أنفسهم أموالا لرفد المنقطعين من الحجاج وكانت الرفادة في بني نوفل الذين منهم الحارث ابن عامر صاحبها

واما السدانة والحجابة فمناها خدمة « بيت الله » وحفظ مفتاحه والظاهر من هذه الوظيفة انها دينية ولكن متولي هذه الوظيفة الدينية مشترك مع عشيرته بتدبير الشؤون الاجتماعية وهذا العمل الديني نفسه قد كان عند القوم من أهم الامور العمومية في مدنيتهم وجمهوريتهم

وقد نستطيع ان نشبهها من بعض الوجوه بوظائف كبار رؤساء الدين في الامم المتمدنة اليوم ولا يخفى ان وظائفهم من متممات مدنيتهم، ولمن يتولونها شأن يذكر عندهم. وقد كانت الحجابة والسدانة في بني عبد الدار

الذين منهم عثمان بن طلحة صاحبها

واما الندوة فمعناها ظاهر من اللفظ نفسه وكانت دار الندوة في بني عبد الدار ايضاً

واما المشورة فيريدون بها رئاسة الشورى وليس ببعيد عن الصواب اذا شبهناها من بعض الوجوه برئاسة الوزراء أو رئاسة مجلس الاعيان وكانت هذه الوظيفة من خصائص بني أسد وكان يتولاها منهم يزيد بن زمعة ابن الاسود وكان من شأنهم في هذه الوظيفة أن رؤساء قريش كانوا لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه علي صاحب هذه الوظيفة فان أعجبه وافقهم عليه والا تخير وكانوا له أعوانا

واما الاشناق فهي الديات والمغارم فقد كانوا يساعدون من يستحق المساعدة ممن حمل مغرما أودية وكان النهوض مع صاحب المغرم لجمع المطلوب من خصائص بني تيم الذين منهم أبو بكر الصديق فكان أبو بكر اذا نهض مع أحد صدقه قريش وأعانوا من نهض معه وان نهض غيره خذلوه.

وأما القبة فأشبه شيء بنظارة الحربيــة ولكن كانوا يعمدون إليها وقت الحرب فقط ولعل ذلك لسذاجة الحرب اذ ذاك أو لاستعدادهم لها كل وقت اذا تأججت نيرانها، وقد كانوا يضربون قبة فيجمعون اليها مايجهزون به الجيش وكان ذلك من خصائص بني مخزوم الذين منهــم خالد بن الوليد صاحبها

واما الاعنة فمعناها رئاسة الخيالة وكانت هذه الوظيفة للمخزومي أيضا وخالد صاحب هذه الوظيفة هو ذلك الفاتح العظيم القائد العام في

الاسلام لجيوش أبي بكر خليفة النبي عليه الصلاة والسلام وما أظن تاريخ فن التعبئة اليوم يخلو من الاستئناس بذكر تلك التدابير المخزومية التي كان لها شأن عظيم في الاسلام كما هو شأنها في الجاهلية (أو الجمهورية)

وأما السفارة فالمراد بها ظاهر وقد كانوا يحتاجون الى السفارة في الحروب أي في أوائلها أو بعد شبوب نارها وتعاظم أوزارها ويحتاجون اليها اذا نافرهم حي للمفاخرة . وقد كانت هذه الوظيفة من خصائص بني عدي الذين منهم عمر بن الخطاب صاحبها وناهيك بذلك الخليفة الثاني الشهير بكل منقبة صالحة إذا كان سفير قوم

أما الايسار فهي الازلام والقداح كانوا يضربون بها اذا أرادوا أمرا وكان هذا من خرافاتهم وعيوبهم ويحق لنا أن نبالغ في استهجان هذه الخرافة التي كانوا عليها الا أن يكون لهم شيء من النظر من وراء الخرافة كما هو الحال في كثير من الامور الباطلة التي تروج في امم بسماح من العقلاء أو بترويج منهم لها وقد كانت هذه الوظيفة لبني جمح الذين منهم صفوان بن أمية صاحبها

وأما الاموال المحجرة فهي الاموال التي سموها لآلهتهم ويصح أن تسمى هذه الاموال أم الاوقاف الخيرية اى ان بينهما تشابها . وقد كانت هذه الوظيفة أي تولي النظر في الاموال المحجرة من خصائص بني سهم الذين منهم الحارث بن قيس صاحبها

هذا ما كان من حيث ترتيب التضامن واقتسام الاعمال المهمة . واما الامور الجزئية التي كان الافراد يختلفون فيها فتفصل فيها كبار أسرهم وعشائرهم في الغالب على طريقة التحكيم ولم يكن للقوم من شريعة مكتوبة

وانما كانوا يقضون في الامر كما يبدو لهم الصواب فيه ويقيسون الامور باشباهها

وهنا يخطر في بال القاريء أن يسأل عن الضعيف الذي لا يأوي الى ركن شديد من رهطه كيف كان حاله اذا أهين أو ظلم في ذلك المجتمع الذي لا شريعة فيه مكتوبة ولا قوة عمومية من شأنها وخصائصها دفع القوي عن الضعيف ، وقد بحثنا في هـذه المسألة المهمة فوجدنا القوم لم ينسوها ولم يهملوا شأنها وذلك انهم قرروا في مؤتمر لهم حماية الضعيف والذود عنه، وكان من حديث ذلك المؤتمر ان قبائل من قريش اجتمعت في دار عبدالله بن جدعان الشهير وتعاهدوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا في مكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، فسمت قريش ذلك حلف الفضول وكانت الارهاط المتعاقدة بني هاشم وبني المطلب وبني أسد بن عبد العزى وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرة

ثم كان من النقص في نظامهم ذلك أن لا تكون حماية الضعيف من خصائص الجمهور ولكن يظهر انهم كانوا يكتفون في الضعيف بأن يجيره واحد من بيوت العزة والقوة فانه يصير مثل مجيره في نظر الجمهور فلا يجسر أحد أن يبغي عليه

ويمكننا أن نستخلص من كل ما تقدم ان القوم كان لهم شبه قانون أساسي الا انه غير مكتوب ولم يكن لهم قوانين مدنية أو جنائية قط . والامر في الامور المدنية سهل في المجتمعات البسيطة الصغيرة فكل انسان يستطيع فيها أن يحتفظ بحقوقه أو يستعين عليها بالتحكيم وما أشبهه. وأما الحوادث

الجنائية فلا يجوز اهمالها وتركهامن غيران يتولى الفصل فيها أناس مقيدون بقوة تنفيذية مخافة ان تكثر الجنايات ولكن تكافؤ القوى في العشائر والبطون المتساكنين في بلد واحد قد يكون مانعا من كثرة الجنايات واذا اضيف الى ذلك صلاح الاخلاق والتربية العمومية كان هذا نعم الظهير على تقليل العدوان وقد كان القوم يتواصون باجتناب الظلم ولا سيما في البلد الامين ومن وصاياهم في ذلك قول إحدى نسائهم توصي ابنا لها :

أبنيّ لا تظلم بمكـ ـة لا الصغير ولا الكبير

واحفظ محارمها بنيّ ولا يغرّنك الغرور

أبنيّ من يظلم بمكـ ـة يلق أطراف الشرور

أبنيّ يضرب وجهه ويلحْ بخديه السعير

أبنيّ قد جربتها فوجدت ظالمها يبور

الله آمنها وما بنيت بعرصتها قصور

والله آمن طيرها والعصم تأمن في ثبير

وتواصيهم بالنهي عن الظلم يغرينا بتعرف فلسفة القوم التي كانت تحثهم على مثل هذا

الفصل الثالث

﴿ ديانة أهل مكة عند البعثة ﴾

ويظهر لنا انهم طرقوا كسائر الامم باب الضالة المنشودة وهي معرفة ماهي نفوسنا ومن أين مبدؤها والى اين منتهاها وماذا يزكيها وماذا يدسّيها نعم طرقوا هذا الباب ولكن لم يفتح لهم عن الطريق الموصل الى هذه

الحقائق المكنونة بل كان نصيبهم كنصيب الاكثرين ظنوناً ورجماً بالغيب

أدرك القوم ان للعالم خالقاً ومدبراً هو الذي خلق السموات والارض وما فيهن، وهو الذي خلق السمع والابصار والافئدة، وقالوا كما يقول سواهم انه تستحب الرغبة اليه والرهبة منه ولكن في هذه السبيل تاهوا فتركوا اهنا العقل والتفكر وقلدوا الامم واتخذوا من الحجارة أوثانا وقالوا ان تعظيم هذه الاوثان يقرب الى الله لان هذه الاوثان تماثيل أو كتماثيل لاناس صالحين محبوبين عند الله فتعظيمهم الى درجة العبادة يقرب الى الله

فقد غلطوا في ظنهم ان الله يحب هذه الحجارة. وأخطأوا بزعمهم ان تنزيل العقول الى تعظيم هذا الجماد (بهذه الصورة) تعظيما قلبيا يرضي الله تعالى. وحادوا عن الحق بتخيلهم ان هؤلاء يشفعون لهم عند الله تعالى

وقد كان الواجب ان لا يكون في قلوبهم حب وعبودة الا للحي القيوم ولم يكن جائزاً ان يشركوا به الجماد

وكان لهم أغلاط أخرى كثيرة في ذات الله سبحانه وصفاته وأفعاله فقد زعم بعضهم ان الملائكة بناته، وزعم بعضهم ان الجن شركاؤه في الملك، وظنوا جميعهم ان لن يبعث الله بشراً ليعلمهم ويزكيهم.

غلطوا في كل هذا وتسفلت فيه عقولهم ولكن اعتقادهم بأن للعالم صانعاً مدبراً عظيما هو رب الكل وانه يجب ان يتقرب اليه العبيد قد رقق على مافيه من النقص والبعد عن الطريق القويم قلوب كثير منهم وكأنه أعدها لقبول حق سيظهر نوره فيمحق خطيئاتهم الاعتقادية

والمشهور ان القوم لم يكونوا يقولون بالمعاد والجزاء الاخروي ولكن الحقيقة أنهم كانوا في ريب وشك أي لم يكونوا جازمين بشيء في هذا

الباب ، وكان أناس منهم تذهب بهم عقولهم الى وجوب المعاد والجزاء الاخروي ، ولكن عدم اعتقادهم بالجزاء الاخروي لم يكن مانعا من ان تكون قلوبهم منجذبة الى الاخلاق والاعمال العلية التي تحث على مثلها الديانات من البر والاحسان والعدل والصدق والكرم وحماية الضعيف وترك العدوان والابتعاد عن الخيانة والبغي وما أشبه هذه المناقب ، وعقولهم انما طرأ عليها التسفل الى تعظيم الجماد لان الوثنية هي الغالبة في عصرهم ولا يبعد عن الصواب من يقول ان الوثنية هي الغالبة على طباع البشر كلهم الا قليلا

فاذا صرفنا نظراً عن تلوث عقولهم بنزغات الوثنية لانجد من بعدها هذه العقول مظلمة وهي التي أضاءت لهم فعرفوا بها الاخلاق الصالحة والفاسدة ولم يكن يعوزهم الا أن يقوم فيهم مرشد يهديهم للتي هي أقوم من طرائق الاعتقاد بالله وصفاته والتقرب اليه بتوجيه الوجه واسلام القلب اليه ، ولولا ان للقوم عقولا صافية لما رجي لمجيء المرشد من فائدة لانه لا يظهر نور الارشاد الا في اللوح النقي . ولكن الرجاء بالقوم في محله فانه لما جاء المرشد لقي أراضي في منتهى الاستعداد لما أراد أن يلقي البذار والى جانبها أراض أخرى فيها من أعشاب التمسك بالقديم ما يحتاج إلى زمن في معالجة ازالته وقليل من الاراضي كانت سبخة ليس في الامكان أن ينتج فيها البذار

لا يهولنك من القوم سقم عقولهم فيما كانوا يعتقدون فان البشر كلهم الا قليلا كانوا ولا يزالون يعتقدون أمثال معتقدات القوم فوا أسفاه ان هذا العيب عام وراسخ في البشر ومن أصعب الاشياء استئصال

جذوره ولا ندري السر في هذا. ولكن انظر الى هذه الجماعة القليلة كيف أقامت لها شأنا رفيعا في العرب كلهم اذ غلبتهم على التوطن جوار البيت المشرف وأحسنت المقام في هذا الجوار الشريف فقامت بحقوق حجاجه من سقايتهم ورفادتهم . وقامت بحقوق المستضعفين فيه من حمايتهم وتأمينهم ، وقامت بسنن التضامن والتعاون والتواصي بالعدل والاحسان حتى رضي العرب بتقديمهم عليهم اذا تقدموا واياهم لامر عظيم وشرف جسيم ، على انهم ليسوا في العرب أكثر عدداً ، ولا أقوى ناصراً . لا جرم قد خصهم الله بأفراد كانوا في نقاء القلوب آية ، وبلغوا في صفاء العقول الغاية . والامم والشعوب تحيا بافراد وتموت بأفراد

واذا سخر الاله سعيداً لاناس فانهم سعداء

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد حريتهم التي كانوا انما يهنأون بها لما خلصوا من تمليك أحد عليهم خلصوا من شرور كثيرة تتبع التمليك فكانت معاشراتهم ساذجة خالية من عبارات الملق والخنوع ، وكانت مكاسبهم لا نفسهم لا يشاركهم فيها مشارك ولا يعرفون المغارم المرتبة والاتاوات المضروبة

وهم في أمن من حيف القضاة لانهم يتحاكمون يوم يشاءون الى من يرضونه من كبرائهم ولا قانون لهم في المسائل الجزئية ترتعد من أحكامه فرائصهم وانما يخشون بأس بعضهم فيرتدعون عن الشر الذي يثأر له العموم أو يثأر له من أصابهم خاصة

وكان جائزا لاحدهم ان يتدين كما يريد بشرط ان لا يعيب دينهم

الذي كانوا عليه ولا يدعو الى ابطاله، وقد كان لبعضهم فلسفة في النشور والجزاء الاخروي ولبعضهم انصراف عن عبادة الاوثان ولبعضهم ميل الى تقليد أهل الكتاب فلم يكونوا يحاسبون أحداً على مثل هذا

ولم يكن لديهم نوع من المبايعات حراما بل يبيعون ويشترون كما يشاءون وكل منهم عارف بمصلحته ولهم همة في التجارة والرحلة فيها الى الشأم وغيرها في الصيف والشتاء

أما أهل الصنعة فيهم فلم يكن لهم من قيمة والغالب ان يكون الصناع غرباء

ولهم ازاء حسنة الحرية سيئة كبيرة وهي امتهان الرقيق واحتقاره وتكليفه الشاق من الامور ولم يكن بعضهم يأنف من إكراه اماثه على البغاء ليأخذ ما يعطين في سبيله

وأما نساؤهم الحرائر فلم يكن جائزاً لهن الزنا ولا سيما اذا كان لهن بعولة، بيد أنه لم ينقل لنا انهم رتبوا على الزواني عقاباً بل كان عقابهن الى رأي أهلهن اذا شاءوا

وكان لنسائهم كثير من الحقوق ولهن ان يواجهن الرجال ويبرزن أمامهم حاسرات ويمكن ان يقال بالاجمال ان حرية الرجال والنساء كانت تامة ولذلك نعجب من قوم هذا شأنهم اذا رأيناهم لم يرثوا لحال الرقيق ولم يذكروا انه يستحق الرحمة لانه مسلوب أفضل كساء كساهموه ربهم الاعلى، الذي خلق فسوى،

الفصل الرابع

﴿ مقام النساء في قوم خديجة ﴾

تلك كانت أحوال قوم خديجة فى نظام اجتماعهم ذلك ولم يكن مقام المرأة فيهم مقاما مهينا بل كان لها لديهم مقام كريم وجل ماعرف عنهم من انحطاط مقام المرأة أنهم كانوا يكرهون البنات وأنهم كانوا يئدونهن أى يدفنونهن في التراب وهن على الحياة (١٦ : ٥٨ وإذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ٥٩ يتوارى من القوم من سوء مابشر به ، أيمسكه على هُون أم يدسُّه في التراب الا ساء مايحكمون *)

هذا ماعرف عنهم ومن أخذ هـذا الامر على ظاهره واطلاقه يستخف بهؤلاء القوم لان انحطاط قيمة المرأة ومقامها عنـدهم دليل على انحطاطهم ولكن أخذ الامر على ظاهره واطلاقه ليس من شأن الذين يحبون معرفة الحقائق

ان كل بلد فيها الفقراء وذوو اليسار ، وفيها الحمق واولو الالباب، وفيها القساة وأهل المرحمة . فليس من العقل ولا العدل ان يجعل عمل بعض الحمق او القساة او الفقراء في بلد مثالا ومرآة لاعمال مجموع أهل البلد كان في مكة فقراء وحمق وقساة كما هو الحال في سائر البلاد وكان

أناس قليلون من هذه الاصناف يأتون هذا العمل الفظيع نعني الوأد (دفن البنات في الحياة في سن الطفولية) فلا ينبغي أن يقال بدون تقييد إن القوم الذين نشأت منهم سيدتنا هذه كانوا يئدون البنات. ان قوما نبغت فيهم مثل هذه السيدة لا يعقل ان يكونوا قتلة بنات. كلا انهم لم يكونوا يقتلون الاجساد، ولم يكونوا يقتلون منهن العقول والارادات، واما الذي نقل عنهم فهو عمل نفر يكادون لايذكرون من فقرائهم او حمقاهم او قساتهم

ولم يكن الذين يئدون بناتهم يأتون هذا العمل الفظيع تغيظا من هذه النسمات البريئة أو احتقاراً لجنس المرأة كما يلوح لاول وهلة بل كان يسوقهم الى ذلك فساد في الخيال وضعف عظيم فى الطبيعة. وان الخيال الفاسد ليزين المنكر حتى يظنه صاحبه من المعروف كما يشاهد كل واحد منا كثيرا

كان منهم فقراء زين لهم خيالهم الفاسد ان فتاتهم اذا ظلت في ميدان الحياة ربما نالها ضيم من فقرهم وربما عجزوا عن ان يكرموهن بنفقة تساويهن بأترابهن، من ذوى قرباهن او جوارهن، فيرون مواراتهن في التراب، خيرا لهن من بقائهن دون الاتراب،

لا نكران للحق ان هذا الخيال باطل ولا سيما عند المؤمنين ولكن هذا الخيال الباطل لم يوح الى صاحبه ان الفتاة شجرة خبيثة يجب اجتثاثها قبل النمو ويستحسن حرمان الوجود من ثمراتها وانما زين له سوء عمله هذا من طريق اخرى هي كرامة فتاته

يتخيل ذلك المسكين ان فتاته ان عاشت تعيش مثله في غصص تذيب للفؤاد ولو قدّ من الجلمود ، وكرب تسود الوجوه البيض وتبيض الشعور السود ، فيزين له خيله ان يحمي كريمته فلذة كبده من مثل هذه الحياة التي بلاها فقلاها ، وان يتقي بألم ساعة عند توديعها وتسليمها الى الابد آلام سنين يراها فيها كثيرة النصب قليلة النصيب كما يتقي أحدهم بألم الكي آلام سقم مزمن

وكان منهم حمقى توسوس لهم شياطين الخواطر بأن الفتاة ربما وقعت في يد من لا يرعى له ولها حرمة . ولو قضي على كل البشر بتمثل هذه الوساوس لآذنت الدنيا بالانقضاء ، ولكن الموجد لم يشأ إلا ان تكون الدنيا على هذا النمط من الاستمرار فلذلك لم يوجد لهذه الوساوس سلطان على قلوب البشر الا قليلا ممن بلغنا شيء عنهم من هذا القبيل

ساء ما يزين لهؤلاء الفقراء والحمقى الذين كبر نصيبهم من القسوة مع نصيبهم من الفقر والحمق ، فلو علم المعدم ان اليسار ليس محتكراً في بيوت معينة واشخاص مختصة وانما يتاح للعاملين المحسنين مع الظروف المناسبة . وان قيمة كل امرىء مايحسنه ، وان ليس عليه الا ان يعمل بالمعروف عند قومه ويصبر قليلا حتى يتاح له مايقوم به شأنه ، لما سهل عليه ان يقصف بيديه غصناً منه أنبته الله ولا لذة أكبر من تربيته وتنميته

ولو علم الاحمق ان الفرار من توهم العدو نهاية الجبن وغاية الخذلان وشر أقصى درجات الخسران لرأى انه جدير بالبكاء على حظه من ضعف النفس

وهيهات أن يكون قوم «خديجة» على هذا النمط من ضعف النفوس

وهم المعروفون بالشجاعة والاقدام. وأي قوم تطيب لهم الحياة اذا كانوا لا يرون سلامة حرمهم الا بافنائها ؟ واني يجد الشخص الطمأنينة اذا كان دأبه الحرب، من غير ما طلب ؟

أما انهم كانوا يكرهون البنات اذا بشر أحدهم بها فلا يستطيع أحد انكاره لان القرآن المجيد هو الذي سجل هذه الحقيقة التاريخية وقد سرى هذا الى نفوسهم من شدة احتياجهم الى البنين الذين سيكونون المدافعين في ذلك المجتمع القائم بنفسه قيام المجتمعات الكبيرة . وليس معناه ان البنت تظل طول دهرها مكروهة وان النساء لا قيمة لهن ولا قدر عند أولئك القوم. ماذنب القوم اذا كان نفر من فقرائهم وحمقاهم قد ضعفت نفوسهم فاستسلموا الى الاستراحة مما يلذ للكرام التعب فيه ؟ وما إجرامهم الى الانسانية من بعد ان يقوم أمجادهم بافتداء كثير من الفتيات اللاتي تصدى اباؤهن لوأدهن من الفقر ؟

ان العرب كافة وقريشا خاصة كانوا يعزون المرأة ولا يهينونها، وقد أعطوا النساء كل ما لهن من الحقوق في نظر العدل، ولم ينسوا ان المرأة كالرجل هي انسان يحمل دماغا فيه ادراك وأن لهذا الانسان المؤنث نفساً كنفس ذلك الانسان المذكر تغضب وترضى وتنعم وتشقى فأعطوا دماغها ونفسها حقيهما

وقد رووا لنا ان هنداً بنت عتبة وهي من قوم سيدتنا «خديجة» جاءها أبوها يشاورها في رجلين من قومها رغبا الزواج بها فقالت صفهما لي فقال « اما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش ان تابعتيه تابعك، وان ملت عنه حط اليك ، تحكمين عليه في أهله وماله ؛ واما الآخر فوسع عليه،

منظور اليه ، في الحسب الحسيب ، والرأي الاريب ، مِدرهُ أرومته ، وعز عشيرته ، شديد الغيرة ، لا ينام على ضعة ، ولا يرفع عصاه عن أهله »(*) فقالت يا أبت الاول سيد مضياع للحرة فما عست ان تلين بعد ابائها ، وتضيع تحت جناحه اذا تابعها بعلها فأشرت ، وخافها أهلها فأمنت ، فساء عند ذلك حالها ، وقبح عند ذلك دلالها ، فان جاءت بولد أحمقت ، وان أنجبت فعن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه علي بعد . وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة ، الحرة العفيفة ، واني لاخلاق مثل هذا لموافقة فزوجنيه » فزوجها الثاني وكان هو أبا سفيان بن حرب فولدت منه معاوية مؤسس دولة بني امية الشهيرة وأحد نجباء العرب ودهاتهم

فهكذا كان مقام المرأة في قوم سيدتنا « خديجة » لا يفتات أهلها عليها في حقها وهكذا كان رأي ذوات الحجى والزكانة منهن

ولقد كان كثير من نساء العرب يشاركن في السياسة والامور العمومية وناهيك أن الحرب التي ظلت مستمرة نحواً من اربعين سنة بين بني ذبيان وبني عبس لم يتفكر في اطفاء نارها الا امرأة ولم تتمكن من اطفائها الا بما لها من المكانة وحسن الرأي وذلك ان بيهسة بنت أوس ابن حارثة بن لام الطائي لما زوجها ابو هامن الحارث بن عوف المري وأراد ان يدخل عليها قالت اتتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضها بعضاً تعني بني عبس وبني ذبيان ـ فقال لها ماذا تقولين ؛ قالت « اخرج الى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع اليَّ » فخرج وعرض الامر لخارجة بن سنان فاستحسن ذلك وقاما كلاهما بهذا الامر فمشيا بالصلح ودفعا الديات من أموالهم

(*) كناية عن اليقظة

وحسبك من اشتهرن من العربيات في السياسة منهن اللاتي كن من شيعة الامام علي ايام مناصبة معاوية له كسودة بنت عمارة بن الاشتر الهمدانية، وبكارة الهلالية . والزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية . وام سنان بنت جشمة بن خرشة المذحجية، وعكرشة بنت الاطرش بن رواحة، ودارمية الحجونية . وام الخير بنت الحريش بنت سراقة البارقي . واروى بنت الحارث بن عبد المطلب الهاشمية .

وفدت سودة على معاوية بعد موت علي فاستأذنت عليه فأذن لها فلما دخلت عليه سلمت سودة فقال لها كيف انت يا ابنة الاشتر ؟ قالت بخير ياامير المؤمنين . قال لها انت القائلة لأخيك :

شمّر كفعل أبيك ياابن عمارة يوم الطعان وملتقى الاقران
وانصر علياً والحسين ورهطه واقصد لهند وابنها بهوان
ان الامام أخا النبي محمد [1] علمُ الهدى ومنارة الايمان
فقُد الجيوش وسر أمام لوائه قدما بأبيض صارم وسنان

قالت ياامير المؤمنين « مات الرأس ، وبتر الذنب، فدع عنك تذكار ماقد نسي » فقال «هيهات ليس مثل مقام أخيك ينسى» قالت «صدقت والله ياامير المؤمنين ما كان أخي خفي المقام ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وان صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وبالله اسألك ياامير المؤمنين اعفائي مما استعفيته » قال قد فعلت فقولي حاجتك . فقالت يا امير المؤمنين « انك للناس سيد ، ولأمورهم

(١) اخوة الدين

مقلّد ، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ، ويبسط بسلطانك ، فيحصدنا حصاد السنبل ، ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيسة ، ويسألنا الجليلة ، هذا ابن ارطاة قدم بلادي ، وقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولو لا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فأما عزلته فشكرناك ، واما لا فعرفناك » فقال معاوية « اياي تهددين بقومك ، والله لقد هممت ان أردك اليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك » فسكتت ثم قالت :

صلى الاله على روح تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونا

قد حالف الحق لا يبغي به ثمنا فصار بالحق والايمان مقرونا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : علي بن أبي طالب رحمه الله تعالى : قال ماأرى عليك منه أثراً قالت : بلى أتيته يوما في رجل ولاه صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين فوجدته قائما فانفتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطف ألك حاجة فأخبرته خبر الرجل فبكى ثم رفع يديه الى السماء فقال « اللهم اني لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك » ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم قد جاءتكم موعظة من ربكم ، فاوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الارض مفسدين ، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ) اذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك حتى يأتي من يقبضه منك والسلام » قال معاوية اكتبوا لها بالانصاف لها والعدل عليها فقالت « ألي خاصة أم لقومي عامة ؟ فقال ماانت وغيرك ؟ قالت هي والله الفحشاء واللؤم ان كان عدلا شاملا وإلا

يسعني مايسع قومي . قال اكتبوا لها بحاجتها

ووفدت بكارة الهلالية أيضا على معاوية بعدموت علي فدخلت عليه وكان بحضرته عمرو بن العاص ومروان وسعيدبن العاص فجعلوا يذكرونه بأقوالها التي قالتها في مشايعة علي ومعاداة معاوية فقالت أنا والله قائلة ماقالوا وما خفي عنك مني أكثر :فضحك وقال ليس يمنعنا ذلك من برك

وكتب معاوية الى عامله بالكوفة ان يوفد اليه الزرقاء ابنة عدي بن قيس الهمدانية مع ثقة من ذوي محارمها وعدة من فرسان قومها وان يوسع لها في النفقة فلما وفدت على معاوية قال مرحبا قدمت خير مقدم قدمه وافد كيف حالك ؟ فقالت بخير ياأمير المؤمنين ثم قال لها ألست الراكبة الجمل الاحمر والواقفة بين الصفين تحضين على القتال وتوقدين الحرب فما حملك على ذلك؟ قالت ياأمير المؤمنين مات الرأس وبتر الذنب، ولا يعود ماذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والامر يحدث بعده الامر .قال لها أتحفظين كلامك يومئذ ؟ قالت لا والله لا احفظه قال لكني أحفظه وتلا عليها خطبة من خطبها التي هي في منتهى البلاغة ثم قال لها والله يازرقاء لقد شركت عليا في كل دم سفكه قالت احسن الله بشارتك وأدام سلامتك ؟ فمثلك يبشر بخير ويسر جليسه ؛ قال أو يسرك ذلك ؟ قالت نعم والله ، فقال والله لوفاؤكم له بعد موته ، أعجب من حبكم له في حياته ، اذكري حاجتك فقالت ياأمير المؤمنين آليت على نفسي ان لا أسأل أميرا أعنت عليه أبدا . ومثلك من أعطى من غير مسألة ،وجاد عن غير طلبة. قال صدقت وأمر لها وللذين جاؤا معها بجوائز

ووفدت عليه أيضا أم سنان بنت جشمة وعكرشة بنت الاطرش ،

ولما حج سأل عن دارمية الحجونية فجيء بها اليه فقال لها بعثت اليك لاسألك علام أحببت عليا وابغضتني، وواليته وعاديتني، فاستعفته فلم يفعل فقالت له احببت عليا على عدله في الرعية، وقسمه بالسوية، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالامر، وطلبتك ماليس لك بالحق، وواليت عليا على حبه المساكين، وإعظامه لاهل الدين، وعاديتك على سفكك الدماء، وجورك في القضاء، وحكمك بالهوى. ثم قال لها: ياهذه هل رأيت عليا؟ قالت إي والله قال فكيف رأيته؟ قالت رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك، ولم تشغله النعمة التي شغلتك. قال فهل سمعت كلامه؟ قالت نعم والله فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت صدأ الطست. قال صدقت فهل لك من حاجة؟ قالت نعم تعطيني مائة ناقة حمراء، قال ماذا تصنعين بها؟ قالت أغذو بألبانها الصغار، وأستحيي بها الكبار، واكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر، قال فان أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي بن أبي طالب؟ قالت سبحان الله أو دونه، فقال أما والله لو كان علي حيا ما أعطاك منها شيئا قالت لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين

وكذلك وفدت عليه أم الخير بنت حريش من الكوفة ووفدت عليه أروى بنت الحارث وجرى لهما معه حديث من مثل ماتقدم

فهكذا كان مقام المرأة العربية، من أخوات سيدتنا القرشية، وهكذا كان حظهن من الفصاحة والحصافة، ومبلغهن من المشاركة في الامور العمومية والاخذ بالاسباب، والمشايعة لبعض الاحزاب. وما أتينا الا باليسير توطئة لمعرفة مقام السيدة خديجة في قومها

الفصل الخامس

مقام خديجة عند قومها

ما أكرم هذا المقام ! وأي بليغ لا تأخذه الهيبة اذا دعي لتصور هذه المنزلة؟ سيدة بطلعتها الفخامة والشرف يتجليان ، والجمال والكمال يتألقان ،

ومزايا كالزهر نفحاً وطيباً وكزهر السما بهاءً ونورا

من شرف حسب ، الى كرم محتد ، الى سؤدد قبيل ، الى عز عشيرة ، الى جمال ذات ، الى كمال صفات ، الى فضل حجى ، الى طهارة نفس ، ذلك ما كانت تتزين به سيدتنا « خديجة » وذلك ما كانت تحل به بين قومها في المكانة العالية والمقام الكريم

هذه المزايا ليست بالبدع من الاشياء ، ولا نبؤها بغريب من الانباء ، بل هي معهودة في كثير من النسوة ، ومع ذلك لم يكن لاسمهن نصيب بغير الخمول ، قد طويت أعلامهن ، ولم ينشر ذكرهن ، ولم يسمُ في أقوامهن مقامهن ، فكيف تسامى اسم « خديجة » وعلت منزلتها ؟

انما كان لخديجة ذلك الشرف بشيء آخر غير مزاياها . ذلك الشيء هو ارتقاء مدارك قومها وسلامة أذواقهم وحسن انتظام مجتمعهم . وليس بكاف لتعالي امريء أن يكون كاملا بل لا بد مع ذلك من إحاطة قومه علماً بفضائله ووجود ميل فيهم للفضائل والكمال ، ومن المشهور أن الحجارة

الكريمة عند من لا يعرف مزيتها لا قيمة لها وهي عند عارفيها فوق القيم فالحق ان ارتفاع من يستحق الرفعة في قوم ليس دليلا على فضله وسعادة جده وحده بل هو دليل ايضاً على فضل اولئك القوم وسعادة جدهم، فقد ربح قوم كان للافاضل منزلة كريمة لديهم : وخسر قوم لا يعلو بينهم الا من استمان بجيش من الحيل والخداع ، وحواش من النقائص المتغلبة على الطباع،

واذا كنا معجبين بالسيدة «خديجة» لوفرة مزاياها الشريفة فنحن بقومها الذين شرفوا هذه المزايا أشد إعجابا . وليست « خديجة» وحدها هي التي نالت مقاما كريماً في قريش بل كثير من فضليات نسائهم نلن المقام الكريم فيهم ، وكان لكثير منهن آثار مشكورة في مساعدة الاسلام الذي نقل العرب وغيرهم الى أعلى مما كانوا فيه، ولم يستطعن ذلك الا بمالهن من القدر الذي يليق بانسان ذي رأي ممدود ، وعقل مذكور، ونفس مشابهة وحسبك من هذا ان ذلك الرجل العظيم عمر بن الخطاب أبا العدل وأبا الفتوح وابا السياسة والادارة لم يكن اسلامه الا بمحاورة سيدة من أولئك السيدات القرشيات هي اخته فاطمة زوجة ابن عمه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل

نحن نعلم أن أكثر الناس يمرون بالمزية يعبدون أمثالها فلا يلتفتون اليها ما لم تكن رائعة وفوق ما اعتادوا وهذا عندنا ضار لانهم يعهدونه ايضا ما يستحق الا لتفات اليه ، ويغري بالانتفاع منه ان كان مفيداً، والتغافل عن الانسان المفيد اذا لم يكن فوق العادة يوصل الى الحرمان البتة من ذلك الرائع المنشود ، والسامي الذي هو فوق المعهود

ولا يشكن القاريء في ان كثيراً من الاشياء التي صرفتنا الالفة عن إجلال شأنها هي في جلالة الشأن عند الامعان فوق ما نتصور. وفي كثير مما لا نتفكر فيه منها ما تخر الافكار صاغرة أمام زاخر فوائده وباهر أسراره، فلذلك أحببنا ان نمر بقارئنا مرة في تفصيل جملة تلك المزايا التي شرفها قوم «خديجة» حتى كانت بها كريمة المقام فيهم لانه ربما اختلج في صدره التعجب من إكبارنا شأن مزايا معهودة في كثيرين وقد يكون قارؤنا من حزب الاكثرين الذين لا يبالون بالمعهودات، ولا يطربون بغير الغرائب

نعم، نعم نحن لم نطرف عما فوق المعهود، ولم نهد ما وراء المشهود، ولاعذنا بمبتدعات التصور، ولا لذنا بغرائب الحوادث، وشواذ المصادفة، وخوارق العادة، ولم نمت الى افئدة القراء الا بمعروف له أمثال، ومألوف لا تضيق بتصديقه الافكار، ولكن الامر عندنا في هذه المعهودات على ماقلنا. واذا ثبنا اليها بنظر الامعان غير وسنانة عين بصيرتنا ألفينا فيها عند سأم النفس من لذة الحس، أعظم ما تتوق اليه من لذة التصور وفائدة الادراك

واذا كانت الحياة واحدة كان جديراً بنا ان نقف متذكرين هذه الوحدة ابداً أمام كثرة اختلاف المظاهر وشدة احتجاب الاسرار، ولم يكن حسناً بنا ان ننسى أحاسن ماتلده لنا هذه الامم من الصور التي لا تحصى

اننا بتذكرنا من سادوا وشادوا، وبتذكرنا من صلحوا وأصلحوا، وبتذكرنا من اوجدوا وابتدعوا ـ نتذكر تاريخ امنا الحياة وترتاح نفوسنا

باستجلاء أحسن صورها ، وتتوارد عليها اللذة باشتياقها الى نصيب من ثروة تلك الام التي جادت بمقادير منها عظيمة على اخوتنا أصحاب تلك المظاهر ولابسي تلك الصور ، ولم لا نتوق الى حديث ذلك التراث وهو ملأ كنوزاً ان عجزت أفكارنا أن تحيط بكنه جواهره خبراً فهي لا تعجز ان تأتينا بلذة من التأمل في بديع كيانها والامل ببلوغ ما تميل اليه النفس منها

الفصل السادس

فضائل (خديجة) والفضائل عند قومها

تبارك واهب الحياة ، فقد أبدع لنا في «خديجة» المثال الاسنى منها، وأطلع لنا في شخصها زواهر الانسانية الفضلى ، وبنور هذه الزواهر رأينا مدارك قريش في الافق الاعلى ، وتربيتهم الادبية والعقلية في المنزلة العليا

نحن معشر بني الحياة متفاوتون كثيراً في قوى النفوس وأكثرنا في الحقيقة مغبون الحظ منقوص النصيب من القوى التي تكون بها الحياة هنيئة شريفة مسعدة لصاحبها وغيره، وقليل منا من رزقوا فضلا من هذه القوى النافعة الآتية بالغبطة والحبور . ولدى التأمل نجد استعداد فطرة الشخص هو الاساس في حسن الحظ من هذه القوى النافعة، ثم للتربية دخل كبير، فاذا اجتمع في الشخص استعداد حسن وتربية حسنة كان حظه عظيما من

فضائل النفس وقد اجتمعا في « خديجة » فرأينا في سيرتها ذلك المثال السنيّ والكمال السميّ

عرفنا حسن استعدادها ، لان التربية وحدها لا تفعل شيئاً في جوهر النفس اذا كان غير صالح لفعلها ، كما لا يصلح الماء لان تطبع فيه ما تشاء ، وعرفنا حسن تربيتها لان الاستعداد وحده لا يسير بصاحبه الى المرغوب في المجتمع . ومن حسن استعداد هذه السيدة وحسن تربيتها عرفنا شيئاً آخر جديراً بالتنويه وقلما رأينا من نوه به او التفت اليه ، فلذلك عنينا به نحن كثيراً في صدد هذه السيرة وهو ارتقاء قوم « خديجة » ارتقاء عظيما فان التربية الشخصية مقتبسة في الغالب من التربية العمومية . والمجتمع غالبا اشبه بالمرآة يرينا من الاشياء مقبولا ومردوداً ومسكوتا عنه . وتشتهر المقبولات حتى يطلق عليها اسم المعروف ، والمردودات حتى يطلق عليها اسم المنكر ، ويضطر الناس الى تقرير تربية عمومية هي ان لا يخالف المعروف ولا يوافق المنكر ، ويبقى للناس سبح في المسكوت عنه من الاشياء حتى يرى كل منهم رأيه فيها ، فهذا يستحسن شيئا حتى يوجبه على نفسه ، وذاك يستقبح شيئا حتى يحرمه عليها . وأعقل الناس في هذه الاشياء المسكوت عنها من جعل المعروف والمنكر معيار العا فكل ما قرب من المعروف كان حسناً ويكون وجوبه على حسب درجة قربه من المعروف ، وكل ما قرب من المنكر كان مسترذلا ويكون حظره على حسب درجة قربه من المنكر . والاصل في المنكر هو الاذى والعدوان ، وعليه قيس الاصل في المعروف قياس الضد فالاصل فيه العدل والاحسان

فعلى هذين الاصلين تقوم دعامة النظريات في التربية وعليهما تشاد الاعمال فيها
وأي باحث لا تأخذه هيبة اذا اطلع على ماكان تقوم «خديجة» من التعمق في دقائق هذا الفن من حيث النظر، وعلى بدائع النتائج فيه من حيث العمل، أي والله ان هؤلاء القوم النازلين في ذلك البلد الصغير البعيد، واخوانهم الآخرين الضاربين في تلك القيافي، يدهش المطالع ما يراه لهم من الباع الطويل في فن التربية على مقتضى مجتمعهم ذاك. فتراهم مثلا لما كانت السماحة ضرورية ولا سيما لذلك الاجتماع جعلوها في المقام الاول ولم يألوا بطبعها في النفوس حتى نبغ فيهم أجواد باتوا بهمتهم في الجود الكواكب، وازينت الارض بمناقب هممهم، وايثار اخيهم الانسان على انفسهم، كما فعل كعب بن مامة الذي آثر رفيقه بمائه ومات هو عطشاً
ولما كانت الشجاعة ضربة لازب لكل شخص وكل جماعة في كل زمان وكل مكان، تجدهم جعلوها شعار المحامد وتاج المناقب وسيروا فيما ضربوه من الامثال قولهم «الشجاع موقّى، والجبان ملقّى» وكانوا يتمادحون بالموت قتلا ويتهاجون بالموت علي الفراش ولما بلغ عبدالله بن الزبير — وهو ابن أخي خديجة — قتل أخيه مصعب خطب فقال «ان يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه، انا لا نموت حتفا ولكن قطعاً بأطراف الرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف، وان يقتل المصعب فان في آل الزبير خلفا منه » ذلك لانهم كانوا يكرهون الحياة اذا لم تشرف ويرون الحياة الرذيلة معرضة للعدم أكثر من الحياة الشريفة. ولمثل هذا يقول علي بن أبي طالب «بقية السيف أنمى عدداً وأطيب[1] ولدا» وتقول الخنساء وهي احدي الشهيرات في العرب:

«١» وفي رواية وأنجب

نهين النفوس وبذل النفو س يوم الكريهة أبقى لها

لا يستنكرن احد اذا قيل له ان الشجاعة ـ وهي السجية التي لا ترقى الامم اذا خلت منها ـ كانت في العرب من الاخلاق الفاشية التي لا يعتدون بأحد منهم ما لم تكن فيه ، وقد سهل على نفوسهم انطباع هذا الخلق فيها الان أكثر شيء كانوا يتناقلونه هو حديث الشجعان واقدامهم في الشدائد حتي فضلوا ، والجبناء واحجامهم فيها حتى رذلوا ، وهنالك من الشعر في الشجاعة والشجعان ما يفعل في النفوس فعل السحر فيستنزلها من الخوف علي الحياة والهرب بها الى الخوف على الشرف حتى تهون النفوس في سبيله كقول عنترة وهو أحد مشهوري شجعانهم:

بكرت تخوفني الحتوف كانني أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها ان المنية منهل لا بد ان أسقى بكاس المنهل

فاقني حياءك لا ابالك واعلمي أني امرؤ سأموت ان لم أقتل

وقد يظن ظان ان شجاعة العرب وبأسهم لم يكن الا فيما بينهم ومثل هذا الظن من قلة الاطلاع على جملة أخبارهم ، فنحن لا نريد ان ناتي بآية على شجاعتهم مما فعل هؤلاء القوم بعد اسلامهم فان ذلك مشهور ولكن حسبنا ان ندل القاريء على ما كان من بأس العرب يوم ذي قار اذ أراد كسرى أن يوقع سوءا ببني بكر بن وائل لسبب لا محل لتفصيله هنا فجهز عليهم جيشا كثيفا ليهلكهم به وبلغهم خبره فتجهزوا له واعانهم قبائل اخرى فتوافوا بواد اسمه ذوقار وكانت الهزيمة على جيش كسرى حتى تبعهم العرب الى داخل البلاد الفارسية وهي وقعة مشهورة كثرت فيها الاشعار ،

وفي هذه الواقعة يقول الأعشى أعشى بني بكر :

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم ... مناغطاريف ترجو الموت وانصرفوا
لقوا ململمة شهباء يقدمها ... للموت لاعاجز منا ولا خرف
فرع نمته فروع غير ناقصة ... موفق حازم في أمره أنف
فيها فوارس محمود لقاؤهم ... مثل الأسنة لاميل ولا كشف
لما رأونا كشفنا عن جماجنا ... ليعلموا اننا بكر فينصرفوا
قالوا البقية والهندي يحصدهم ... ولا بقية إلا السيف فانكشفوا
لو ان كل معد كان شاركنا ... في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف
لما أمالوا الى النشاب أيديهم ... ملنا ببيض لمثل الهام تختطف
اذا عطفنا عليهم عطفة صبرت ... حتى تولت وكاد اليوم ينتصف
بطارق وبني ملك مرازبة ... من الاعاجم في آذانها الشنف
من كل مرجانة في البحر أحرزها ... تيارها ووقاها طينها الصدف
كأنما الآل في حافات جمعهم ... والبيض برق بدا في عارض يكف
مافي الخدود صدود عن سيوفهم ... ولا عن الطعن في اللبات منحرف

وفي هذه الواقعة يقول العديل بن الفرج العدلي :

ماأوقد الناس من نار لمكرمة ... إلا اصطلينا وكنا موقدي النار
وما يعدون من يوم سمعت به ... للناس أفضل من يوم بذي قار
جئنا بأسلابهم والخيل عابسة ... لما استلبنا لكسرى كل أسوار

وفيها يقول شاعر آخر من بني عجل

ان كنت ساقية يوماً ذوي كرم ... فاسقي الفوارس من ذهل بن شيبانا

واسقي فوارس حاموا عن ذمارهم ... واعلي مفارقهم مسكا وريحانا

وهي واقعة شهيرة ظهرت فيها الشجاعة العربية أكمل مظهر وكان المنذر لهم بنية كسرى وعزمه لقيط الايادي إذ كتب الى بني شيبان يخبرهم بذلك في شعر مشهور غاية في البلاغة والتحميس واستثارة العزائم وفيه يقول :

قوموا جميعا على أمشاط أجلكم ... ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا

وقلدوا أمركم لله دركم ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

لامترفا ان رخاء العيش ساعده ... ولا اذا عض مكروه به خشعا

مازال يحلب هذا الدهر أشطره ... يكون متبعا طوراً ومتبعا

حتى استمر على شزر مريرته ... مستحكم الرأي لاقحما ولا ضرعا[1]

وليس يشغله مال يثمره ... عنكم ولا ولد يبغي له الرفعا

فعلى مثل ماذكرنا كان نصيب العرب عامة وقبيلة خديجة خاصة من الشجاعة التي لاقوام للأمم بدونها وكانوا لا يعتدون بالجبان ولا يعدونه شيئا مذكورا . ينبئك بذلك قول أحد شعرائهم

خرجنا نريد مغارا لنا ... وفينا زياد أبو صعصعة

فستة رهط به خمسة ... وخمسة رهط به أربعة

حكمة العرب ومعارفها وأدبها

ثم لم يكن نصيب قوم « خديجة » في فقه النفس والحكمة والمعارف بأقل من نصيبهم العظيم في الشجاعة فقد كانوا يتناقلون المعارف ويتدارسونها

«١» المريرة طاقة الحبل والحبل الشديد الفتل ، والشزر الفتل عن اليسار والمعنى استحكم أمره وقويت شكيمته والقحم الرجل الهرم والضرع الضعيف

من غير كتب وكان لهم الملم قليل بحركات الكواكب والانواء التي تتبعها. وهو يقتضي شيئاً من معرفة الحساب وكان لهم معرفة غير قليلة بالطب وحفظ الصحة سواء كان طب الانسان أوطب الحيوان. والطب يقتضي أيضاً نصيبا من علم الخواص التي اودعها الباري في المدن والنبات والحيوان اما معرفتهم بالاخبار أي التاريخ فحدث عنها ولا حرج وكانوا يعبرون عن هذا العلم بعلم النسب فان علم النسب في الحقيقة ليس عبارة عن معرفة نسب الاشخاص والقبائل فان هذه معرفة بسيطة لا تستحق أن تسمى علما وانما كان النسابون يعرفون أخبار أولئك الاشخاص وأخبار تلك القبائل وهذا هو التاريخ وربما كان السبب في اشتهار هذه المعرفة باسم علم الانساب أن عارفي الاخبار كان اليهم المرجع في معرفة الانساب التي من أهم فوائدها معرفة تفريع القبائل والحاق الفروع بأصولها على شدة البعد بين الاصول وتلك الفروع أحياناً. وقد كان منهم اختصاصيون بهذا العلم يأتون منه على من يتحلقون حولهم. قال رؤبة بن العجاج قال لي النسابة البكري « يارؤبة لعلك من قوم ان سكتُّ عنهم لم يسألوني وان حدثتهم لم يفهموني » يعيب بذلك على الذين لا يرغبون في تلقي هذا العلم حق الرغبة قال رؤبة فقلت له : أني أرجو أن لا أكون كذلك. قال فما آفة العلم ونكرته وهجنته ؟ قلت : تخبرني قال : آفة العلم النسيان ، ونكرته الكذب ، وهجنته نشره عند غير أهله »

وأما الحكمة والآداب والبيان فقد بلغ فيها هذا الشعب العربي من الانصباب على حفظها ودراسة الكلام الجوامع فيها مبلغا عظيما ويمكنني أن أقول إنها من أشهر مااشتهر عنهم .

وهل يجد الباحث معنى من المعاني التي يخطر للنفس فيها الاستحسان أو الاستهجان الا ويجد لهم الشافي الوافي من البيان في تصويره وابرازه بأبدع حلة. ولا ينبئك ببعض ذلك شيء كالمأثور من كلمهم الجوامع التي سارت مسير الامثال ، وكانت كالدرر الفرائد بين سائر الاقوال

ولا نستطيع أن نأتي هنا بقليل من ذلك الكثير لكيلا نبعد بالقاريء عن سياق السيرة ولكنا نذكر خبراً واحداً يدل على مقدار عناية العرب بتذاكر الحكم والآداب ، وصياغتها بابدع البيان ، ومقدار ماوسعت منها تلك الافكار . ذكروا أن عمرو بن الظرب العدواني وحممة بن رافع الدوسي اجتمعا عند ملك من ملوك حمير فقال: تساءلا حتى أسمع ماتقولان. فقال عمرو لحممة أين تحب أن تكون أياديك ؟ قال «عند ذي الرثية المعدم، وعند ذي الخلة الكريم ، والمعسر الغريم ، والمستضعف الهضيم » قال :من احق الناس بالمقت ؟ قال « الفقير المختال، والضعيف الصوال، و الغني القوال» قال فمن أحق الناس بالمنع ؟ قال الحريص الكاند ، والمستميد (١) الحاسد ، والملحف الواجد ، قال من أجدر الناس بالصنيعة ؟ قال من اذا أعطي شكر ، واذا منع عذر، واذا مطل صبر ، واذا قدم العهد ذكر. قال من أكرم الناس عشرة ؟ قال من اذا قرب منح ، واذا ظلم صفح ، وان ضويق سمح .قال من ألأم الناس ؟ قال من اذا سأل خضع ، واذا سئل منع ، واذا ملك كنع ، ظاهره جشع ،وباطنه طبع (٢) قال فمن أجل الناس ؟ قال من عفا اذا قدر ، وأجمل اذا انتصر ،ولم تطغه عزة الظفر.

---

(١) المستميد المستعطي(٢) كنع انكمش وتقبض ،والجشع الطمع والشره والطبع بفتحتين الدنس.

قال فمن أحزم الناس ؟ قال من أخذ رقاب الاسود بيديه ، وجعل العواقب نصب عينيه ، ونبذ التهيب دبر أذنيه ، قال فمن أخرق الناس ؟ قال من ركب الخطار ، واعتسف العثار ، وأسرع في البدار ، قبل الاقتدار (١) قال من أجود الناس ؟ قال من بذل المجهود ، ولم يأس على المفقود. قال فمن أبلغ الناس ، قال من حلى المعنى العزيز ، باللفظ الوجيز ، وطبق المفصل قبل التحزيز (٢) قال من أنعم الناس عيشا ، قال من تحلى بالعفاف ، ورضي بالكفاف ، وتجاوز مايخاف الى مالا يخاف . قال فمن اشقى الناس ، قال من حسد على النعم ، وسخط على القسم . واستشعر الندم ، على مافات ، قال من أغنى الناس ، قال من استشعر الياس . وأظهر التجمل للناس ، واستكثر قليل النعم ولم يسخط على القسم قال فمن أحكم الناس ؟ قال من صمت فادكر ، ونظر فاعتبر ، ووعظ فازدجر . قال من أجهل الناس ؟ قال من رأى الخرق مغنما ، والتجاوز مغرما

وما ذكرناه من جهة معارف القوم الذين نشأت منهم هذه السيدة كاف في الدلالة على أنه كان من جملة مايعنون به من التربية تثقيف ناشئتهم بما عندهم من المعارف على الطريقة التي ألفوها وتعودوها في التعليم وهي الطريقة الطبيعية الساذجة الخالية من الاصطلاحات والتعاريف والتفاصيل التي يحتاج اليها نفر قليلون ويستغني عنها الآخرون. ولكل فرع أهله الذين بهم استعداد لالتقاطه بسهولة ، ولا يكلف البليد في شيء أن يكد في تفهمه مدركته أو ينضي في حفظه ذاكرته ، أو في توسيعه مخيلته

(١) يريد بالبدار السباق إلى معالجة الخصم ، وذلك قبل الاقتدار خرق اي حماقة

(٢) تطبيق المفصل إصابته وإبانة العضو بضربه . والتحزيز مبالغة من الحز في اللحم وغيره وهو البدء بقطعه

ثم قد كان مما عني به العقلاء من رهط خديجة التربية على العدل ولقد أسلفنا شيئا عن ولعهم به وحرصهم على حماية المظلوم ووقاية المهضوم وكذلك ولعوا بتمداح العفاف وتشريف الاعفاء والعفائف واجلال الطهارة واهلها وكان من أكرم ألقابهم وأجلها لقب الطاهر والطاهرة وقد حازت السيدة خديجة هذا اللقب الشريف باستحقاق اذ كان يقال لها « الطاهرة »

فاذا عرف المطالع الكريم أن لهؤلاء القوم حظا كبيراً من هذه الاشياء التي هي أصول الفضائل نعني السماحة والشجاعة والحكمة والآداب والبيان والعدل والتعفف كان جديراً به أن لا ينظر الى صغر شأن ذلك المجتمع اذا قورن ببلاد الحضارة فان الفضل الانساني الممنوح من يد الفاطر المبدع لا يتوقف على زخرف البيوت وكثرة الدور في البلد الواحد بل يصل ذلك الفضل بارسال رباني من يده سبحانه الى الذرات الصغيرة التي في الادمغة ويختص به سبحانه أفراداً ممن عنوا بتوجيه العقول والقلوب الى تصفية النفس وتزكيتها من النقائص وتحليتها بالفضائل ممن لم يجعلوا أكبر همهم تجويد المأكل والملبس والمسكن والفراش. فاذا كثر من هؤلاء الافراد في أمة ظهرت وان حل الخفاء بهم، واستوفت وان بخس الوزن لهم، ولم يكن الافراد الذين تلقوا هدية الفضل الانساني من الاحسان الرباني قليلين في قوم خديجة الفاضلة بل كانت كثرتهم خير مقدمة لخير نتيجة هي ظهور ذلك الرسول الكريم الذي كان من أكبر مميزات جماعته الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، أولئك الذين واقام الوحي بنعتهم باسم أهله قائلا (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)

الفصل السابع

جمال خديجة والجمال عند قومها

الجمال محبوب لذاته عند الطبع، ومحبوب لفائدته عند العقل، ومع كثرة ما ألفت العيون رؤيته، والآذان سماع أحاديثه، لاتزال أسراره موضوع التفكر، ولا تزال دقائق تأثيراته محل الاعجاب، كيف لا وهو السر الاعظم في جذب الانسان الى مقاماته العلى من الابداع، والسبب الاكبر في ابعاد ما بينه وبين الحيوان في مراقي الوجدان والادراك، فشرفه مجمع عليه عند بني آدم بغير خلاف بينهم. واما قوم حرموه فقد باؤا بحرمان عظيم. ولذلك لم نجد بدا عن ذكر هذه المزية الاخرى لقوم «خديجة» فانها مزية جديرة بالذكر لاسيما بعد ان اشتهر عند من لم يعرف هؤلاء القوم انهم كانوا لا حظ لهم من الجمال، ولا ذوق لهم في الحسن، ولا نصيب من توجه النفس الى الاحسن

كبرت سبة أن يكون قوم «خديجة» على ما يظن هؤلاء الذين لا يتالف في ذهنهم ان يكون القوم سكان اقليم حار وذوي شظف من العيش ثم يكونوا مع ذلك ذوي خلقة جميلة وصورة بديعة

وكبر منا تقصيراً ان لا نبين في هذا الباب ماهو من جملة مناقب هذه السيدة وقومها فان استغرب قوم لم يميزوا اسرار الخليقة نظرة تخصيصنا فصلا لهذا الموضوع فانهم سيرونه فيما بعد مكيننا في موضعه على انه سيجد فيه المتفكرون صاحبهم الانيس ويجدهو فيهم أهله الكرام

ان العرب قد تناسبت أجزاؤهم ، وتناسقت أوضاعهم ، واعتدلت أشكالهم ، بياضهم جميل ، ليس فيه بهق بعض الاجيال ، وأدمتهم لطيفة ، ليس فيه حلكة بعض الاقوام ، ولعل من فازت من حسانهم بحظ عظيم من الجمال تقل نظائرها في حسان الآخرين ، وتكون آية المنتهى في جمال العالمين ،

والمشهور ان الجمال يختلف في أذواق الناس ولكل جيل قياس في الحسن لا يأتي عليه قياس جيل آخر ولكن من أمعن بما يتناقله الكل من صفات الحسن يجد ثمة جهة جامعة ومقياسا واحداً تتفق معه المقاييس كلها وذلك ان الحسن الذي لا خلاف فيه ليس هو بلون الاديم وانما هو باعتدال القامة ، واستواء الهامة ، وتناسب اجزاء الوجه ومقاطعه ، وحلاوة المبسم ، وملاحة العينين ، ولطف الحاجبين ، ورقة الشفتين ، ولعل هذه المذكورات تكثر في العرب حتى ندر ان نجد غير موصوف او موصوفة بالحسن من مشهوريهم ومشهوراتهم . واذا اضيف الى ما ذكرناه بياض الاديم وتشربه بحمرة او صفرة كان ذلك فضلا في الجمال ، قد يبلغ به منتهى الكمال ، ولم يكن هذا اللون قليلا في العرب عامة وقوم خديجة خاصة

والعرب لم يكثروا في كلامهم من شيء بمقدار ما أكثروا من وصف الجمال وقد رأيناهم يستحسنون هذين اللونين كثيراً : البياض المشرب بحمرة او البياض الضارب الى صفرة وقال ذو الرمة احد شعرائهم :

بيضاء صفراء قد تنازعها . لونان من فضة ومن ذهب

وهذا اللون هو لون اللؤلؤ وقد جاء في القرآن المجيد تشبيه حسان

الجنة باللؤلؤ المكنون ولا يختلف أحد الى عهدنا هذا في أن هذا اللون هو الذي تكون صاحبته أقرب الى الكمال في الجمال اذا أخذت بحظ من تناسب بقية الاوضاع . فانه عند ما ينطبع فيه الاحمرار لسبب من الاسباب تكون حمرته ألطف من الحمرة الملازمة لبعض البيض وعن مثل هذا عبر عدي بن زيد أحد شعراء العرب بقوله :

حمرةٌ خِلْطَ صفرة في بياض مثلما حاك حائك ديباجا

ولكثرة البياض اللطيف في العرب شبّهوه بالصبح واشتقوا من الصبح لونا فقالوا للأبيض صبيح ، واشتقوا من الزهر لونا فقالوا للأبيض المشرب بحمرة أزهر ، وتشبيههم بورد الخدود دليل على كثرة هذا اللون فان هذه الحمرة لا تنطبع إلا على أديم أبيض ، ورأيناهم يشبهون الاعناق كثيراً بأباريق الفضة كما قالت قريبة بنت حرب أخت أبي سفيان في أعمامها وأخوالها

وليس بعجيب بعد أن كان الجمال الرائع من جملة خصائص العرب أن نجدهم مغرمي القلوب بمجالي تجلياته ، منصرفين في الوجوه الى مشارق أنواره . ثم لا بدع بعد ذلك اذا وجدنا حب الجمال قد لطّف أذواقهم ، وعودهم على الاستحسان وتقلهم من حال الى حال . الى أن تهيؤا لقبول الدعوة التي رقت بهم من هذا الجمال الى أعلى ،ومن هذا الغرام الى ما هو أولى ، نقلتهم الى تصور الجمال الالهي مصدر كل جمال ، ورقت بهم الى عشق الكمال المعنوي الذي هو فوق كل كمال ، فلم يصعب على أولئك

الذين شغفهم الجمال المحسوس ، أن يفهموا الجمال المعقول ، وان يزدادوا نصيباً منه مع نصيبهم من ذلك ، ولم يعزّ عليهم أن ينتقلوا الى العالم الجديد الذي دُعوا اليه ، لانه تبدّى لهم أجمل مما كانوا عليه

ونحن اذ نرى للعرب الحظ الاوفر من الشغف بالحسن والاستحسان يزيد قدرهم في اعتقادنا ونرى من غير تردد انهم كانوا لذلك العهد من أرقى الاجيال الراقية على بعدهم عن الزخرف ، وعدم تعلقهم بكل أسباب الحضارة ، ولعلنا اذا بحثنا عن المؤثر الاعظم في وفرة جمال هذا الجيل نجد ذلك لانهم خصوا بأخذ المعتدل من المعاش ، والتنقل في المعتدل من الاقاليم ، وحبب اليهم المعتدل من المهن والاعمال ، وأضافوا الى ذلك أنهم لا يتزوجون من غير رؤية غالبا وللانتخاب دخل كبير في تحسين الجنس وتجويد النسل .

وإن بدا لأحدهم أن يتزوج بمن سمع بجمالها سماعا تجده لا يقصّر في البحث والتدقيق بواسطة من يثق بحسن ذوقهن ، وجودة إمعانهن ، والحكاية الآتية تدلنا على مقدار حرصهم على اختيار الجميل وعلى مبلغ هذا الشعب من الجمال :

أراد ملك من ملوكهم (هو عمرو بن حجر ملك كندة جد امرىء القيس) أن يتزوج ابنة عوف بن محلم (الذي يقال فيه لا حرّ بوادي عوف لافراط عزه) وكانت ذات جمال فوجه اليها امرأة يقال لها عصام لتنظر اليها وتمتحن مابلغه عنها فلما رجعت قال لها الملك « ماوراءك ياعصام »

قالت رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة يزينها شعر حالك ، ان أرسلته خلته السلاسل ، وان مشطته خلته عناقيد كرم جلاه الوابل ، ومع ذلك حاجبان

كأنهما خطا بقلم ، أو سوّدا بحمم قد تقوسا على مثل عين العبهرة ، التي لم يرعها قانص ولم يذعرها قسورة بينهما أنف كحد السيف المصقول لم يخنس به قصر ولم يمض به طول حفت به وجنتان كالارجوان ، في بياض محض كالجمان شق فيه فم كالخاتم لذيذ المبتسم فيه ثنايا غرر ، ذوات أشر يتقلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، يزين به عقل وافر . وجواب حاضر ، يلتقي بينهما شفتان حمرا وان كالورد ، يحلبان ريقا كالشهد ، تحت ذاك عنق كابريق الفضة . ركب في صدرها تمثال دمية ، يتصل به عضدان ممتلئان لحما مكتنزان شحما ، وذراعان ليس فيهما عظم يحس ، ولا عرق يجس ، ركبت فيهما كفان رقيق قصبهما . تعقد ان شئت منهما الانامل نتأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها ـ الى أن قالت حين انتهت الى وصف ساقيها ـ وشيتا بشعر أسود . كأنه حلق الزمرد ، يحمل ذلك قدمان ، كحذو اللسان ـ فتبارك الله مع صغرهما ، كيف يطيقان حمل ما فوقهما »

ووصفهم الحسن والجمال في الشعر مشهور كقول بعضهم من قصيدة

ويزين فوديها اذا حسرت   ضافي الغدائر فاحم جعد

فالوجه مثل الصبح مبيض   والفرع مثل الليل مسود

وجبينها صلت وحاجبها   شخت المخط أزجّ ممتد

وكأنها وسنى اذا نظرت   أو مدنف لما يفق بعد

فهذا مثال من أمثلة الجمال العربي الذي كان لخديجة حظ منه كبير ولم يكن حظها هي منه قليلا

الفصل الثامن

ثراؤها والثراء عند قومها

وكان للسيدة « خديجة » مع ما أتاها الله من الجمال وفضائل النفس حظ من الثراء أيضا وثراؤها في حياة أبيها وكانت تاجرة ولعل أباها نحلها رأس المال بادىء بدء

لم يكن اشتغال سيدتنا هذه بالتجارة شيئا يعجب منه في قومها فانهم كادوا يكونون كلهم تجارا . تقضي بذلك طبيعة مقامهم في ذلك البلد وشريعة تربيتهم على طلاب المجد واتساع السؤدد ، ومنافسة الاقرب والابعد ، ولولا شغفهم بهذا لما سمعنا بصدى همتهم في التجارة من بين إخوانهم الآخرين . ولولاه لاستطابوا من العيش ما استطابه ذلك الاعرابي الذي سئل عن طعامهم في البادية فقال لسائله : « بخ بخ عيشنا عيش تعلل جاذبه ، [1] وطعامنا أطيب طعام واهنؤه وأمرؤه : القت[2] والهبيد [3] والصليب [4] والعلهز [5] والذآنين [6] والعراجين [7] والضباب [8] واليرابيع [9] والقنافذ [10] وربما أكلنا والله القدّ [11] واشتوينا الجلد ،

---

(١) تعلل من العلل وهو الشرب بعد الشرب (٢) القت الفصفصة وهي الرطبة من علف الدواب (٣) الهبيد الحنظل يكسر ويستخرج حبه وينقع لتذهب مرارته ويتخذ منه طبيخ يؤكل عند الضرورة (٤) الصليب الودك يستخرجونه من العظام بعد أخذ اللحم منها (٥) العلهز قراد كبير ونبات ينبت في بلاد بني سليم وطعام يتخذ في المجاعة من الوبر والدم (٦) الذآنين جمع ذؤنون نبت طويل ضعيف له رأس مدور (٧) العراجين جمع عرجون العود من النخل (٨ - ٩ - ١٠) الضباب اليرابيع والقنافذ حيوانات معروفة (١١) القد جلد السخلة

فما نعلم أحداً أخصب منا عيشاً، ولا أرخى بالا، ولا أعمر حالا، أو ما سمعت قول شاعر وكان والله بصيراً برقيق العيش ولذيذه :

إذا ما أصبنا كل يوم مُذَيقَةً (١)　　وخمس تميرات صغار كوانز

فنحن ملوك الناس خصبا ونعمة　　ونحن أسود الناس عند الهزاهز

وكم متمن عيشنا لا يناله　　ولو ناله أضحى به حق فائز

فالحمد لله على ما بسط من حسن الدعة، ورزق من السعة. وإياه نسأل تمام النعمة»

هذا ما استطابه الاعرابي وحمد الله عليه هذا الحمد. وما الاعراب الا بشر قد يستطيب غيرهم من البشر ما يستطيبون اذا خلصوا إلى مثل معيشتهم ومارسوها لكن من الناس من لا يطلبون في الحقيقة ما يقيم مادة البدن فقط كما تطلبه سائر الحيوانات بل يتسابقون الى ما به الغبطة من المقتنيات والذخائر. ويتبارون في ما به التمايز من المستحسنات والبدائع، ويمثل هؤلاء يزيد الله الانسان بسطة من المعارف. وقوة في المدارك

وقريش كما يعرف القارئ كانوا ممن أعدهم الله لعمل عظيم في الارض ولا يتم ذلك بحسب سنته سبحانه ما لم يكن في سابق تربيتهم وطرق حياتهم ما يلائم الطريق الذي سيستأنفونه وما امامهم الا المغامرة في السيادة على شعوب العالم بقدر ما يستطيعون فلم يكن لائقا بمن هم معدون لمثل ذلك ان يقبعوا في بلدهم ولا يعرفوا العالم. ولا تميل نفوسهم الى خيرات السماء والارض الفائضة في ملك الله الواسع. بل اللائق

(١) المذيقة تصغير مذقة، وهي شربة من اللبن الممزوج بماء كثير

بهؤلاء أن يكون كل واحد منهم أنطق حاله بقول ذلك الشاعر من أبناء ملوك العرب (امرؤ القيس)

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة ... كفاني ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل امثالي

وحقا كانت حال القرشيين ناطقة بمثل هذا الكلام وكل منهم له في المجد أرب فلا بدع اذا انصرفت أنفسهم الى تحصيل المال فانه أعظم أدوات هذا المطلوب وقد نجح فيه منهم كثيرون ونفعوا بالغنى قومهم عند الشدائد منهم عبد الله بن جدعان الشهير بجفنته التي كان يقدمها للفقراء والمساكين من زوار مكة وأهلها وقد أمد قومه بالسلاح في حرب حاربوها وسلح مئة كمي من غير قومه ممن حارب معهم وفي هذه الحرب قتل أحد اخوة السيدة «خديجة» العوام ابو الزبير [١] ومنهم أمية بن خلف ابن وهب وابنه صفوان الذي أثر عن النبي (ص) انه قال فيه «ان صفوان ابن أمية قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه» أي بلغ ماله القناطير [٢] وكثيرون غير هولاء

فيالله ما أشبه قريشا الضاربين في أغوار رمال العرب وأنجادها النقل المتاع من هذه البرية واليها على مراكبهم سفن البر بالفينيقيين الضاربين

«١» تحاربت في هذه الحرب قريش وهوازن وكان عمر النبي (ص) فيها اربعة عشر عاما وحضرها مع اعمامه يهيء لهم النبل . وعبدالله بن جدعان سري شهير ومثر كبير وهو من فخذ بني جمح

«٢» امية من فخذ بني جمح ايضا وقد قتل في وقعة بدر وكان مع اعداء النبي «ص» اما ابنه صفوان فاسلم بعد فتح مكة وكان من المؤلفة قلوبهم

في أكباد تلك المياه وأطرافها لنقل البضائع من هذا الثغر إلى ذاك على مراكبهم قلائص البحر . فلئن كان لأبناء تلك السواحل رحلتا شتاء وصيف بين زئير الأمواج ؛ ومعاركة الأمواه ؛ فلأبناء هذه البراري أيضاً رحلتا شتاء وصيف بين عواء السباع ؛ ومعالجة الرمال

لعمر الحق قد أدرك القوم أن الخير كل الخير لأنفسهم ولجيرانهم انما هو في أن يخفوا للتجارة لأنها في الامم أقوى الاسباب المقربة من البدائع ، المبعدة عن الحياة الوحشية . فقاموا بهذا المرغوب خير قيام فكان لذلك ربحهم عظيما من المال ومن ملكة الاختلاط بالاقوام في ذلك العصر السحيق والمكان البعيد . وكان بلدهم على هذا البعد عن العمران المتصل وسطاً صالحا للتجارة في تلك البرية بواسطة الحج الذي كانت تحجه العرب إلى البيت المعظم الذي فيها وجدير ببلدة يحج اليها العرب ذلك الحج أن تكون للرزق من داراً ، وانما تبسق شجرة التجارة في رياض الامن

وكانوا يقيمون من حولها أسواقا موقتة في العام قبيل أيام الحج ويفدون اليها ليبيعوا ويشروا . أشهرها سوق عكاظ كانت تقوم في أول يوم من ذي القعدة « وعكاظ » بين مكة والطائف ومن أسواقهم هذه « ذو المجاز » وهو عند عرفات و « مجنة » وهي موضع بأسفل مكة و « بدر » وهي بين مكة والمدينة

ولقد كان لسوق عكاظ من خطير الشان أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة على اتصاله ببلاد الحضارة وبعده عن مكة كان يبعث كل عام إلى سوق عكاظ جمالا محملة بزاً وطيوبا لتباع في هذه السوق ويشرى له

بثمنها من أدم الطائف [1] مايحتاج إليه ولم يكن يرسلها في هذا الطريق البعيد التي تمر فيه على قبائل شتى حتى يجيرها له شريف من شرفاء العرب

وهذا يدلنا على أن تلك البلاد لم تكن تأتي بالحاصلات من غيرها فقط بواسطة التجارة بل كانت تخرج إلى غيرها حاصلاتها أيضاً ومع أن الشام مشهورة بأعنابها وفواكهها كان تجار مكة يأخذون إليها من زبيب الطائف ذلك الزبيب الذي أدهش حسنه وكثرته سليمان بن عبد الملك لما رأى بادره فقال : لله در قيس في أي شئ أودع فراخه : يريد بقيس ثقيفا فكذلك كان اسمه وحسبك أن النعمان بن المنذر كان يرسل يأخذ من أدمها

فتجار مكة لم يكونوا يذهبون فارغي الاحمال إلى الشام وإلى غيرها أحيانا بل كانوا يذهبون ببضاعة حجازية مما تخرج تلك الارض من نبات ومعدن ويرجعون ببضاعة شامية أوغيرها مماتخرج الارض وتصنع الايدي . وآخرون مقيمون غير ظاعنين ليقيموا السوق الدائمة في تلك البلدة « أم القرى »

ولا يستريح القاريء حتى يعلم ماذا كانت تخرج تلك الديار إلى غيرها من الاشياء فانه كلما تصورها غير زراعية وغير صناعية يضيق ذهنه عن معرفة مايصلح أن يخرج منها وله العذر في ذلك أما نحن فنذهب حيرته ببيان وجيز لا يسعنا أكثر منه لئلا ينقطع الحديث فنقول إن تلك البلاد في نفسها رأس مال طبيعي كسائر البلاد . ذلك بما تشتمل عليه من معادن ونباتات برية يصلح بعضها للصبغ وبعضها للدبغ وبعضها للطب وبعضها

(١) الادم بضمتين وبفتحتين الجلود المدبوغة والواحد اديم

للضيوب وبعضها للتنظيف فاذا أضفت إلى ذلك ما كانوا يجففونه من ألبان الحيوانات وما يستخرجونه منها من الزبد ومن أصوافها وأوبارها وجلودها وما كانوا يجففون من التمر والزبيب وغيرهما تجد بضاعة غير يسيرة يحمل مثلها إلى أطراف بلاد الشام مما هو إلى الحجاز أقرب بل ربما راج بعضه في العواصم

نحن اليوم لا نتصور مجتمعا حضريا إلا بأن يكون فيه أمير مسيطر وجند له حافظون، وزراع وصناع وتجار للمعاش ضامنون، وقد رأى القارىء أن مجتمع «خديجة» قام بغير مسيطر وجنده فعسى أن لا يقيس على استغنائه عن سيطرة الامير استغناءه عن الزراعة والصناعة والتجارة كلا فان هذه الثلاث لا قوام لقوم بدونها . ونحن اذا ذكرنا ما كان من النصيب لقوم « خديجة » منها لا نقصد بعد مفاخر لهم إلا من جهة أنهم تغلبوا باعداركهم وهممهم على كل ما كان يحول بينهم وبين المغامرة في ادراك شأو الامم والابتعاد عن البداوة من بعد أن أوشك جوار البادية أن يجذبهم إليها كما جذب اخوانهم الآخرين

فهم تحضروا في ذلك البلد بين أهل البادية وفي منقطع عن العامرة وأعطوا الحضارة حقها على صعوبة الوفاء لها بهذا الحق . وتراهم مع هذا لم يخالفوا سنن العرب فيما يأنفون منه ويترفعون عنه فأقاموا ما احتاجوا إليه من الصناعة في بلدهم ولكن على أيدي عبيدهم لان العرب كانت تأنف من بعض الصناعة وكذلك أقاموا ما احتاجوا إليه من الزراعة على أيدي عبيدهم ولم تكن الزراعة كثيرة في بلدهم ولكن لم يكن خاليا

منها البتة فهناك أودية يجود فيها الزرع والغراس وتجري فيها العيون .
وما الطائف عنهم ببعيد وهو أبو الزراعة

أما التجارة فلم تكن العرب تأنف منها فلذلك باشرها القوم بأنفسهم كما باشر بعضهم بعض الصناعات التي ما كانوا يأنفون منها . فمنهم من كان يبيع اللباس . ومنهم من كان يبيع الادهان . ومنهم من يبيع اللحم ومنهم من يبيع الاداة والماعون والسلاح . ومنهم من يبيع الرقيق خاصة وبالجملة كان فيهم باعة لكل الاشياء التي تدور عليها حاجة الانسان المتحضر من صنوف الاكسية المعتادة . وضروب الاطعمة والاشربة المعهودة . وصنوف الماعون والاداة اللازمة . والعقاقير المعروفة . والحيوانات المتداولة والاسلحة الشائعة . ولم تكن سوقهم تلك خالية من السماسرة ويقال إن عمر بن الخطاب الخليفة الثاني الشهير كان بزازاً ويقال إنه كان سماراً كما أن أبا بكر الخليفة الاول كان بزازاً (رضي الله عنهما)

ومهما كان ذاك المجتمع أقل تشبثاً بالزخرف وأبعد عن التسابق إلى المتاع الزائد عن الحاجة نرى أن حاجاته التي تحتاج إلى عمل التجار لم تكن قليلة ونرى أنها وحدها كافية لأن يكسب بعضهم بواسطتها كثيراً من المال فالتجارة ولا شك هي السبب الاول في ثراء قريش وكثرة المثرين منهم لاننا لم نعهد لهم إلى ذلك العهد وجهاً من وجوه المرابح ونماء المال أعظم منها

وأصناف الاموال التي كان الثراء بها عندهم هي الذهب والفضة . والابل والرقيق . والاراضي للزرع والغراس . والاراضي للمدن

أما الذهب والفضة فهما الواسطة العظمى في تبادل العروض والاعيان

ومن مطالعة أخبار القوم يظهر انه كان لديهم منهما شيء كثير .من شواهد ذلك قول النبي (ص) « ان صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه »ومن شواهد ذلك انه بعد ان ظهر الاسلام وانقسموا قسمين أحدهما مع النبي (ص) في دار هجرته (المدينة)والآخر عدو له في وطنه (مكة) أدت تصاريف العداوة الى اشتعال حرب بين الفريقين في المحل المسمى ببدر بين مكة والمدينة فكان الظفر لاصحاب النبي (ص) ووقع في أيديهم من عشيرتهم سبعون أسيراً افتدوا أنفسهم ووزنوا في فدية الواحد أربعة آلاف درهم فتكون الجملة نحو مائتين وثمانين ألف درهم أي نحو عشرين قنطاراً مصريا من الفضة ولم يحدث في ذلك البلد الصغير أقل ضيق من هذا المقدار الذي وزن أهل كل أسير منه ما عليه . وما هو بالمقدار الكبير ولكنه يدل بالجملة على وفرة هذه الدراهم وتيسرها عند القوم: ومنها ما ورد من انهم انفقوا على حرب النبي في أحد ربح العير التي جاء بها ابو سفيان من الشام وقدره خمسون الف دينار

وكانت النقود التي يتداولونها من ضرب الروم غالبا وبعضها كسروي ولكن لم يكونوا يتداولونها الا بالوزن ولعل ذلك لعدم اتقان ضربها على وتيرة واحدة وقد ظلت النقود الاجنبية الى أيام عبد الملك بن مروان فهو الذي أحدث النقود المكتوب عليها بالعربية

واما الابل فهي أوفر أصناف أموالهم والابل مال كثير البركة لصاحبه فالقليل منها فيه الغنى والغناء ،والنعمة والهناء :من درها الغذاء ، ومن أوبارها الكساء ،ومن جلودها الماعون والحذاء ،ومن بعرها الوقود

للضيف وكشف الظلماء . وظهورها مراكب للظعن والحمل والنجاء [1] وبطونها أعظم بها واسطة للنماء . فبعيشك أيها المطالع في أي صنف من أصناف الاموال الحضرية يجد أحدنا مثل هذه البركة ، التي لا تحتاج الى شيء عظيم من الحركة ؟

وأما الرقيق فقد كان في ذلك العهد معدمالا في جميع جهات الارض وكان هؤلاء القوم من أغنى الناس في الرقيق واذا صرفنا النظر عن استهجان هذه المادة نرى ان لا شيء أنفع من عمل الآلة المتحركة بنفسها النامية بطبيعتها . المدركة بخلقتها .

وأما الاراضي للزرع والغرس فكان فيهم أفراد يملكون منها كثيراً ومن متمولي قريش من كان يملك اراضي في الطائف كعتبة وشيبة ابني ربيعة (من فخذ بني عبد شمس) وغيرهما

وكان نظر القوم الى الزرع والضرع أعظم من نظرهم الى الذهب والفضة فقد سئل بعضهم عن الذهب والفضة فقال « حجر ان يصطكان ان أقبلت عليهما نفدا ، وان تركتهما لم يزيدا ، ان أفضل المال برة سمراء في تربة غبراء ، اوعين خرّارة ، في أرض خوّارة ، أشار بهذه الكلمات القليلة الى ان الموجب لنماء الثروة هو العمل في استخراج الخيرات الطبيعية من الارض التي هي اول رأس مال اما الذهب والفضة المتداولان فواسطة لوزن حركات دولاب الاعمال فقط . وهذا هو الاس الصحيح في علم ثروة الامم

واما أراضي المعدن فالظاهر أن بعضها كان مشاعا وبعضها كان مملوكا اما كون بعضها مشاعا فنأخذه من عادة العرب في جاهليتهم من انهم لم

(١) النجاء الهرب

يكونوا خاضعين لمثل سنن البلاد التي فيها ملوك . والمعادن انما يجعل لها حمى وحرما الملوك الذين يعدونها من جملة الاموال العمومية التي هي حق للخزانة العمومية خزانة المملكة . وأما كون بعضها كان مملوكا فنستفيده مما قرأناه عن ملك بعضهم لبعضها كالحجاج بن علاط السلمي [١] الذي كان يملك معادن بني سليم . وكأنهم لشيوع ملك بعض الناس بعض المعادن كان من الناس من يطلب من النبي بعد الفتوح أن يقطعه شيئا منها فقد طلب بلال بن الحارث أن يقطعه معادن القبلية (منسوبة الى قبل بفتحتين) وهي ناحية من ساحل البحر بينها وبين المدينة خمسة أيام فأقطعه اياها وأقطعه جبل قدس [٢] للزرع

هذه هي اصناف الاموال التي كان بها ثراء هؤلاء القوم يضاف اليها العروض والامتعة التي كانت تتداول في التجارة ، والى مثلها يؤول اليوم كل ثراء فان ملك الارض والمعادن لا يزال أيضا ينبوعا ثرورا للثروة . واستخدام الفعلة بأجر بخس نوع من الاستعباد والاسترقاق اعني أن فائدته المادية كفائدته . والنقود لا تزال كثرتها وقلتها أيضا معيارا

«١» الحجاج بن علاط ليس بقرشي بل هو من بني سليم ولكنه كان متزوجا من قريش «من بنى عبدالدار رهط خديجة» وكانت أمواله تستثمر في مكة وكان مكثرا من المال اسلم يوم فتح خيبر ثم جاء الى النبي «ص» فقال له ان لي ذهبا عند امرأتي «في مكة» وان تعلم هي واهلها باسلامي فلا مال لي فائذن لي لاسرع السير واخبر اخبارا اذا قدمت ادرأ بها عن مالى ونفسي فأذن له النبي «ص» وقدم مكة واخذ امواله بحيلة

«٢» جبل قدس معروف في جوار المدينة .

عظيما لثروة الامم . وعلى مقدار ماتقدم كله يكون محور التداول العروض والامتعة والاثاث والرياش

وقد كان من لا يستطيع ان يباشر التجارة بنفسه أو السفر من أجلها يعطي من ماله الى آخر على أن يتجر به ويكون الربح بينهما أو يعطيه بالربا وكان معهوداً فيهم أو يستأجر آخر ليقوم له بتجارته والامانة هي الغالبة فلم يكن بأس على المال بتسليمه الى من يتجر به بالمؤاجرة أو المضاربة ولذلك لم تصعب التجارة على السيدة « خديجة » التي كان لهاما لنساء قومها من الاستقلال في أموالهن ولم يكن لأبيها ولا اخوتها سلطان في ذلك المال الذي كان تبعث به الى التجارة مع ذوي الامانة ذاهبا وآيبا

وفي إيثار هذه السيدة إرسال أموالها في التجارة على الاتجار بالنقود في مكة كما يفعل المرابون دلالة على بعد نظرها وعلو همتها وعظم عطفها وحنانها على وطنها فان الاوطان تسمو باقدام أرباب أموالها على نشر اسمها في العالم بالبيع والشراء واظهار صنوف الثراء . ولا يكون لها مثل ذلك بشيوع المتاجرة بالنقود(١)

* * *

(١) ذهل الكاتب طيب الله ثراه عما هو أهم من ذلك وهو أن الثروة الوطنية انما تكون بما يربحه أهلها من خارج البلاد لا بما يتداول فيها ، والينبوع الاعظم لذلك هو التجارة، وما امتص الافرنج ثروة أهل الشرق إلا بالتجارة فيه ولولا التجارة لم يكن لمصنوعاتهم ربح من بلادنا . وكتبه محمد رشيد رضا

الفصل التاسع

زوجيها قبل النبي ﷺ

تزوجت خديجة قبل النبي (ﷺ) مرتين تزوجت أبا هالة النباش بن زرارة وتزوجت عتيق بن عابد المخزومي . وكان الزواج المرضي في الجاهلية كالزواج في الاسلام أي إن الرجل يخطب الى الرجل بنته أو من له عليها ولاية ويقدم صداقها فيزوجه . وأما مايذكر من أنواع أنكحة الجاهلية الاخرى فهو من باب السفاح لا من باب الزواج المرضي ولم يكن السفاح والمخادنة من فعل الشرائف والكرائم ، وإنما يفعل أغلب ذلك الاماء والحقائر

وولدت هذه السيدة ولداً من أبي هالة وسمته « هندا » على عادة العرب اذ كانوا يضعون للذكور أحيانا أسماء الاناث فهند هذا هو ربيب النبي (ﷺ) أخو فاطمة لأمها عليهما السلام وقد عاش وأدرك الاسلام وأسلم . روى عنه ابن أخته الحسن بن علي حديث وصف النبي (ﷺ) المشهور في الشمائل وكان هند وصافاً وحديثه هذا أبلغ ماوصف به النبي ﷺ وقد قتل هند مع علي يوم الجمل

سيعجب القارىء من زيادة تعريفنا لابنها هذا ونحن لانكتمه السبب وذلك اننا نحب ان لا ندع شيئا مما يتعلق بسيرة هذه السيدة مغفلا ومهملا ولاسيما بعد إذ رأينا أكثر الذين كتبوا في سيرتها لم يتعرضوا الذكر ولدها هذا فكاد يضيع ويخفى إلا على المنقبين في بطون الاسفار الواسعة وعذرهم

في ذلك انهم انما يتعرضون لسيرة هذه الفاضلة على الغالب منذ تشرفها بزواج النبي (ﷺ)

وان لنا ـ والحق يقال ـ حقا على هؤلاء الناس الذين يريدون أن يعرفونا بشخص ممن مضى فيمسكون أنفسنا بالشيء من أخباره ثم يقطعونه ويجذبونها الى شيء آخر

على انني لا أنكر انه اذا سطعت الشمس لا يبقى لبصيص السراج مكان فمن ذا الذي يعلم أن هذه السيدة اتصلت بشمس الهدى « محمد » ﷺ وولدت منه « فاطمة الزهراء » أمّ الحسنين ثم يرجع باحثا عن ابنها ذاك من زوجها الاول أبي هالة ،

لعمرك اذا وصلت بسيرتها الى هذا المقام تضاءلت أمام نظرك كل ماتسمع عن أيامها الماضية واستشرفت نفسك الى الاطلاع على هذا الشأن الجديد الذي سيكون لهذه السيدة مع هذا الزوج الكريم الذي رنّ الكون كله باسمه الشريف

فمن هنا بدء الحياة العليا لهذه السيدة ، ومن هنا بدء خلود اسمها في لوح الوجود ، وبدء إشراق مواهبها في سماء السعود ، أمامها الآن الشمس بلا حاجز ، فليستمد جوهرها القابل ، وليفض نوراً وسناء ، وليتبارك كمالا وبهاء



*

الفصل العاشر

محمد عليه الصلاة والسلام قبل تزوج خديجة

وإذا العناية صاحبت مرءاً فلا　　تكثر سؤالك فيه كيف ولم وما
ودع التردد إن أتاك حديثه　　مهما حوى مهما نما مهما سما

لا تسأل كيف أبدع الانسان من فتق الكواكب من رتق موادها ، وقدر مدارات لحركاتها ، ونظامات لتقابلها ، وأنشأ منهن المقسمات ليلنا ونهارنا ، المدبرات صيفنا وشتاءنا ، الناظمات في أحشائهن شملنا ، المادات بنسائمهن نسماتنا ، وبأرواحهن كياننا . ولا تسأل لم خلق لنا الأرض جميعاً نشرح أحشاءها ، ونقطع أوصالها ، ونستخرج أفلاذها . قد حصرناها على عظمها في يدنا ، وحشرنا كل ما فيها في ذرات صغيرة من دماغنا . إن شئنا نرفع من شأنها بما نركب من أجزائها ، فيأتي منها من البدائع ما يدهش ألبابنا ، ويسحر أبصارنا . وإن شئنا لم نعبأ بها ، واستشرفت نفوسنا إلى غيرها ، فاطلعنا إلى مصادر الارواح ومواردها ، ومشارق الاسرار ومغاربها ، وارتفعنا إلى ينابيع الاكوان ومظاهرها . وتلمسنا ثمة حياة لا نحتاج فيها إلى ماء الارض وهوائها ، وترابها ونارها

ولا تسأل كيف تقاربت صورنا معشر الانس وتباعدت حقائقنا ، ولم طالت آمالنا وأعمالنا ، وقصرت آجالنا وأعمارنا ، ولم جشمت نفوسنا بتكثير الصور ثم شغفت كل نفس بأنواع منها ، وتخالفنا في تمييزها وترجيح

بعضها على بعض - وتدابرنا في مناهج طلابها . وتقاطعنا في سبيل اكتسابها، ولم هذا البون في انصبائنا . والتعرق في مرامينا . والبعد في مدارجنا ، والتباين في معارجنا ؛

ولماذا منا أناس مع الكواكب مداركهم سابحة في أفلاك الحقائق، وبروج الرقائق والدقائق - ومع الانوار سيرهم منتشرة في سابق الدهور ولاحقها . وبادي الشعوب وحضرها ، وآخرون مع الديدان مشاعرهم دابة بين أوراق الآجام وأحطابها . أو تحت دخان القفار ونقعها ، ومع العصف صورهم منطوية في احشاء الاواكل ، ومندرجة في الاواخر مع اخوانهم الاوائل ؟

لا تسأل عن هذا كله إن كانت نفسك قد وقفت عند مطمأنها من معرفة الاول الآخر . الظاهر الباطن . ذي الحياة الازلية الساري سرها في الاكوان والموجودات ، البادي خط جلالها وجمالها على لوح الآيات البينات ؛ من الاشكال والتنوعات ؛ (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون * ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون)

اذا وقفت نفسك عند هذا المطمأن من المعرفة فلعلها تصل بك إلى معرفة أن ذا الحياة الازلية ذو حكمة ليس في وسع استمدادنا أن تحيط بأسرارها خبراً مهما حامت حولها آمال مداركنا ، ومهما طافت في سوح قدسها صوافي سرائرنا . فأخلق بأحدنا أن يذكر في هذه المسابح الفكرية عجز أجنحة عقولنا عن أن تصل بنا إلى مادون هذا السر الاعظم . ووقوعها بنا في كثير من أشراك الاوهام في الوجودات التي هي تحت حسوسنا ، وفي جوار جسومنا ونفوسنا

وعسى أن ترقى بك هذه المعرفة إلى الاذعان بأن هذا الحي الازلي الحكيم ذو عناية ربانية لايحاسب على مايختص بها من يشاء فله الامر كله فيما يبدىء ويصور . وله الحكمة فيما ينوع ويميز . منه كل شيء واليه المآب

وإن كنت في ريب من الحكمة الازلية . والعناية السرمدية . فدع نفسك واقفة ماشاءت في عتمة النفي . أو دائرة في سجن الشك . أو طائرة في جو الوهم لاقرار لها . وانما نحكي هنا للذين هم بربهم يؤمنون

***

سبق في العناية الازلية أن تكون هداية شعوب كثيرة إلى أقوم سبل الحياة على يد رجل من العرب يرتفع به اسمهم في العالمين وكان من هذا الشرف الذي اعتده الله للعرب أعظم نصيب لعبد المطلب الذي أخرج الله انسان هذه الهداية من أولاده

كان عبد المطلب (١) من كبار أشراف قريش ورزق عشرة أولاد

(١) اسم عبد المطلب شيبة ولتسميته بعبد المطلب حكاية وهي ان أباه هاشما =

من الذكور وكان ابنه عبدالله أحبهم اليه فزوجه شريفة من شرائف قريش من بني زهرة تدعى آمنة فحملت منه وقبل أن تضع حملها توفي فلما وضعت كفل وليدها جده وكان هذا الوليد المبارك «محمداً» صاحب القرآن.

فما أسعدك ياعبد المطلب أكنت تدري وأنت في أبواب أبرهة الحبشي تتطلب منه رد ذلك القليل من الابل الذي لك مما استاقه من إبل مكة أن سيولد لك في هذا العام حفيد تنثني أعناق الملوك في الاجيال المقبلة خاضعة لذكره ؟

أكنت تفكر إذ قصارى أملك حفظ مقامك بين قومك المنقطعين في تلك البرية أن اسمك سيترن به المحافل في الامصار النائية والشعوب المختلفة على مدى عصور كثيرة كلما ذكر نسب حفيدك العظيم الذي اعتده الله لمنصب يتبعه من أجله العالم ويبقى ذكره فيهم إلى الابد ؟

أخطر على قلبك أن بلدك المقدس الذي لم يكن يحج اليه إلا العرب ستحج اليه كل شعوب الارض اتباعاً لما جاءهم به حفيدك من الهداية ؟

أجاء في خلدك أن كنتك آمنة الزهرية انما ولدت من يشرف الله به قومك ويجمع به كلمتهم، ويعلي سلطانهم وينشر لغتهم، ويقيم لهم مجداً مع الدهر مذكوراً، وفي كتاب العالم مسطوراً ؟

= كان قد تزوج امه من بني النجار في «يثرب» (المدينة) فلما ولدته تركه عندها حتى كبر وكان هاشم تاجراً فخرج بتجارة الى الشام فمات في «غزة» فذهب اخوه المطلب بن عبد مناف ليأتي بابن اخيه فأبت والدته ان تعطيه اياه حتى اقنعها بأن اقامته في بلدته وبين قومه وعشيرته خير له ولما جاء به كان مردفه خلفه على بعير فظنت قريش انه عبد ابتاعه فقالوا عبد المطلب وقال لهم المطلب ويحكم انما هو ابن اخي هاشم قدمت به من المدينة ولكن ذاعت كلمة عبد المطلب فاشتهر بها وصارت كأنها علم له

هل كنت ملهما إذ سميته محمداً ، وكنت على رجاء كبير بأن يقيم له العالمون تحميداً لا ينقطع . وتمجيداً لا يزول ،

أعرفت أنك بحفظك هذا اليتيم وكفالتك إياه وعنايتك به انما كنت تحفظ للعالم كله التحفة التي آتاهم الله من كرمه . والوديعة القدوسية التي اختص الله بيتك لظهورها ، وقومك لانتشار مبدإ نورها ،

فأنت بما أوتيت من هذه السعادة الخالدة جدير أيها المخصوص بعناية الحي الازلي . فليدم ذكرك جمالا للمحافل ، واسمك سامياً مع اسم حفيدك نبي الشعوب وبركة العالم

***

كانت ولادة محمد في القرن السادس من ميلاد المسيح عليهما الصلاة والسلام أي حوالي سنة سبعين وخمسمائة منه وحوالي السنة الثامنة والاربعين من ملك كسرى أنو شروان . ولم يكن قومه يعرفون سني الامم وتواريخها ولا سني أنفسهم وانما كانوا يحفظون الاعمار ويوقتون آجال الاشياء بالوقائع الشهيرة والحوادث العظيمة كما هو شأن الاميين إلى عهدنا

ولد عام الفيل وهي سنة اشتهرت بهذا الاسم لوقوع حادثة فيها عندهم تدور صفوة حكايتها على حرن فيل القائد النجاشي وإبائه المسير تلقاء مكة فلذلك سميت بهذا الاسم . وحادثة الفيل شديدة الشهرة ويصح أن نقول إنها من التاريخ المقدس عند المسلمين أي انها ذكرت في القرآن ولكن على أسلوبه في القصص التي يذكرها لاجل العبرة فقط لا على أسلوب المؤرخين ونقلة الاخبار

وقد أعطي لمرضعة على عادة قريش في اعطائهم الاولاد للمراضع من القبائل النازلة قرب مكة ابتغاء أن تربى أجسامهم في البادية حيث الارض النظيفة قد كسيت من الازاهر أبدع المطارق الطبيعية والنسائم

متحملة من ذلك العبير تهديه إلى النفوس رائحة وغادية

***

اذا بزغ رأس النهار أرسل إلى أفئدة أهل النشاط روحا مبشراً بطيب عقبى العمل ، وسوء منقلب الكسل . وكأن بينه وبين سكان البراري وساسة الانعام عهداً أن لا يقبل بطلعته الباسمة إلا وهم مستقبلوه بالتحيات الطيبات من مباسم هممهم ، وثغور اجتهادهم ، ورافعون اليه آيات الشكر على ما له من الايادي البيضاء في اخضرار عيشهم ، وابيضاض وجوه آمالهم

بزغ الفجر يوما على نسمتين في أباطح تهامة قد أسفر عليهما البشر ونفذت الغبطة من أعماق جوانحهما إلى أسارير وجهيهما ، ولم يكن ذلك الانس والبشر لما حولهما من مجالي عرائس الطبيعة لان السماء كانت شحيحة عليهم تلك السنة فلم تترع حياضهم ، ولا أونقت رياضهم ، ولو لم يصن الوادي لهم القليل مما أغيثوا به مرة لقتلهم الظما ـ ولا لما حولهما من وافر الرزق وسابغ النعم ، لانهما لم يكونا يملكان إلا غنيمات قد جارت عليها السنة ، وقتلها الجهد والجدب ، ولكن كان ذلك السرور بنعمة جديدة أصاباها فملأتهما فرحا ، وأشبعتهما ابتهاجا ، ولم يكونا يفتران عن هذا الحديث الذي كانا يتغذيان به صباح مساء ، ويجددان به شكراً على هذه النعماء ، وهذا ما كانا يتحدثان به :

ـ حقاً ياحليمة إنك قد جئتنا بتحفة سنية ونسمة مباركة

ـ أي والله ياحارث وانظر ما أجمله ، انظر إلى هذه الاشفار الهدب انظر إلى هذه العيون الدعج ، انظر إلى هذا الجبين الازهر ، انظر ما أبهى انعكاس هذا الضياء المقبل من الشرق على مرآة هذا الجبين

كان هذا الحديث يجري بين امرأة وزوجها من قبيلة بني سعد صبيحة يوم كانا قبله في مكة وكانت هذه المرأة هي التي جاءت بحفيد عبد المطلب

لترضعه وقد حدثت هي حديثها كيف جاءت به وكيف رأت من بركته قالت:

خرجت مع زوجي وابن لي صغير على أتان لي قمراء [١] معنا شارف [٢] لنا والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك فلقد أذمت [٣] بالركب ضعفا وعجفا حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه اذا قيل لها انه يتيم وذلك انا انما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجده، فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمت معي الا أخذت رضيعا غيري فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي «والله اني لاكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا والله لاذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه» قال لا عليك أن تفعلي عسى الله ان يجعل لنا فيه بركة، قالت فذهبت اليه فأخذته وما حملني على اخذه الا اني لم أجد غيره. قالت فلما أخذته رجعت به الى رحلي فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك. وقام زوجي الى شارفنا تلك فاذا انها حافل [٤] فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا فبتنا بخير ليلة قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا تعلمين والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة، قالت فقلت والله اني لارجو ذلك. قالت ثم خرجنا وركبت أتاني وحملته عليها معي فوالله

(١) القمرة بالضم لون الى الخضرة أو بياض فيه كدرة. حمار اقمر واتان قمراء

«٢» الشارف الناقة المسنة «٣» اذمت بالركب اي حبستهم لانقطاع سيرها من عجفها اي هزالها وضعفها، وأذمت الركاب تأخرت من الكلال. وأصله أتت ما تذم عليه.

«٤» حافل كثيرة اللبن

لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم حتى ان صواحبي ليقلن لي « يا ابنه ابي ذؤيب ويحك أربعي علينا(١) أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن بلى والله انها لهي . فيقلن والله ان لها لشأنا »

قالت ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعا لبناً فنحلب ونشرب وما يحلب انسان قطرة لبن ولا نجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت ابي ذؤيب . فتروح أغنامهم جياعاً ماتبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناء، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان »

فيالك من سعيدة ياحليمة اذ كتب لك ارضاع اليتيم الذى تربيه العناية الخاصة ولم يكشف لك من آثارها الا هذه البركة التي ملأت بيتك وويلكن أيتها المراضع الغبيات المعرضات عن اليتيم التماسا للرضعاء الذين لهم آباء . لقد فاتكن الحظ وما الحظوظ بالاختيار، وعزاء لكم أيها اليتامى فقد عاش محمد العظيم يتيما

***

بعد ان ربي « محمد » (ص) في بني سعد عند السعيدة حليمة جيء به الى أمه فذهبت به وهو ممتليء قوة وهو ابن ست سنين الى المدينة لتزيره اخواله من بني عدي بن النجار وفي عودتها الى مكة توفيت في مكان يسمى الابواء . وكان عبد المطلب شديد العناية بحفيده ويتوسم فيه علو الشأن فلما بلغ الثامنة من عمره ودعه مفارقا هذه الدار، واودعه لدى الجناب الالهي الذى من لدنه واردات البر والبركات اليه، ونوافح الرأفة والحنان عليه،

«١» اربعي اي ارفقي واقتصري

وقام مقامه ابنه ابو طالب شقيق عبد الله ابي النبي (ص) فأدخله في آل بيته وتعهد تربيته وتثقيفه

وكان أبو طالب امرءاً نبيها شهماصادق المروءة ماضي العزيمة نصارا للعدل والانصاف. عرفنا كل ذلك فيه من تكليفه نفسه اقصى ما يمكن ان تكلف النفس في حماية ابن اخيه لما قام بالدعوة، ومن مواقفه أمام قريش في نصره والذود عنه. وقد خلف ابو طالب أباه عبد المطلب في المقام السامي بين قومه فكان ابن عبد الله يتنقل في بروج العز والسؤدد والسعادة في آفاق الشرف الهاشمي، وتنطبع في جوهره الكريم صور البر والعدل والاحسان على مثال الخلال الشريفة التي كان يتحلى بها ذلك الرجل السامي التربية (ابو طالب)

نحن قد رأينا من آثار العناية الازلية بذلك اليتيم العزيز ما يصح القول معها انه كان مستغنيا عن تربية أحد ولكن لماذا لا نقول ان اعداد ذلك العم الفاضل لتربيته في الصغر كان من جملة آثار العناية الفائقة به[١].

أما تربيته اياه التربية الجسدية فقد كانت على غاية ما يتصور علماء الصحة ولذلك جاء من آثارها قوة جسدية لهذا المبارك لا نظير لها، وصار على صورة من الجمال كانت تجعل الذين يرونه يقولون لم نر مثله . ولا يتم الجمال الا بصحة البدن وهي انما تتم بحسن التربية الجسدية

---

(١) ان جل ماذكره المؤلف رحمه الله في الفصل استنباط من قريحته ليس فيه شيء منقول يثبت ان أبا طالب كان ممتازاً عما يذكره من شؤون التربية يتوخاه في تربية ابن اخيه بحيث ينسب اليه ما امتاز به (ص) على الأتراب وغيرهم ومنهم اولاد ابي طالب وقد بالغ الكاتب فيما ذكره فيه من تلقينه انواع الدروس التجارية والاجتماعية في استصحابه اياه في سفره الى بصرى من بلاد الشام وهو ابن ١٢ سنة وقيل ابن ٩ سنين

وأما تربيته إياه التربية العقلية فكانت جديرة أن يسجد امامها فلاسفة النفس واساطين العقل، وهناك من آثارها قبل النبوة ما يجعلنا في حيرة من أمر هذه القبيلة الصغيرة المبتعدة في دارها عن مناشيء الارتقاء العقلي، ومناجم الاشراق الفكري، لا كتب يدرسونها، ولا قوانين للمعارف يرتبونها، ولا شيء الا غرائز طبيعية يتوارثونها، وقواعد عامة يتناقلونها، وحصافة أو توها في نقش أصح التجارب في المدارك، والاحتفاظ بأثبت الفوائد في الذواكر

وكذلك يفعلون في التربية الاخلاقية : ينشئون الذرية على دروس المشاهدة في مدارج العمل، ودروس القصد والاعتدال في معارج الامل. فيأتي من تلك السلائل التي لم تلحقها عدوى الاجيال الفاسدة نوابغ في العقول والاخلاق، أفذاذ في الهمة والاعمال طبع من المربين، ونقش من المثقفين، وذلك كان شأن ابي طالب ودأبه مع ابن اخيه العزيز وربيبه النجيب،

نشأ « محمد » (صلوات الله عليه) في امثال التربية بانواعها كلها على يد ذلك الفاضل العظيم فجاء منه رجل أحسن الناس خلقا وخلقا، اذكاهم عقلا، وازكاهم نفسا، واصدقهم لسانا، أنداهم في العرف يداً، واثبتهم في الازم قلبا، أرحمهم للضعيف، وأشجعهم على القوي، أبرهم للقريب، واعدلهم للبعيد. أقربهم الى المعروف سمعا، وابعدهم في الامور نظرا، أسدهم رأيا واشدهم اقداما، الينهم للصاحب جانبا، واكرمهم الخير صاحبا. وحسبك انه عرف منذ صباه بالأمين، وما زال على هذا المنوال حتى أكرمه الله بذلك المنصب العظيم، فزاده جمالا وجلالا وكمالا، والله أعلم حيث يجعل رسالته

نشأ ذلك المربي على كل ما يزين الرجال من الاعمال فلما كان ابن اثنتي عشرة سنة سار به الى الشام وكان ابو طالب تاجرا فاوقفه في هذا السفر

على ما تكن الارض وتعلن من طبائع الاقاليم المتغيرة ، واحوال العالم المتحولة . ففي طريقهم من مكة الى الشام منازل امم كانت فبانت . كانوا على وجه الارض جمالا لها فلما فسقوا عن السنن التي تحيا بها الامم شالت نعامتهم طرا . ودارت نعمتهم جميعا ، وأصبحوا كأن لم يكونوا « فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الاقليلا » وفي رؤية أمثال هذه المنازل الخاوية أو المنتقلة الى غير أهلها عبرة عظيمة هي أجل ما في السفر من الفوائد : ولقد كان فيما أوحي الى هذا المنعم عليه بعد ان صار نبيا قوله سبحانه (أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)

وفي طريقهم هذه أوقفه عمه على قرى الشام ودساكرها ، ومزارعها ومصانعها ، ومتاجرها وحكومتها ، وأراه كيف يكدح الناس جميعا ليأكل كل نفر منهم خبزه بعرق جبينه ، وليتمتع نفر آخرون بثمرات تلك الارض الطيبة ، ونفائس ماتعمله تلك الايدي الثقفة : وكيف يعمل هذا في الاجتماع ليتم قوامه ، ويحفظ نظامه

ومر به على الاديار والصوامع حيث ينقطع نفر آخرون عن المزاحمة في هـذا الحطام الزائل ، متوجهة نفوسهم الى الوطن الذي يليق بالروح الغريبة في هذا الهيكل الجسماني ، غير ممدودة أيديهم الى شيء من هذه الارض الا الى مايقي البدن من جوع وعرى ، وذلك يتيسر ببعض حبوبها وأعشابها ، وبعض أصواف حيوانها وأوبارها

في بعض تلك الاديار في « بصرى » وقف به على الراهب « بحيرا »

وكان على حظ عظيم من علم الفراسة أو الكهانة فأنبأه بما سيكون لابن أخيه من الشأن العظيم وأوصاه بمزيد العناية به

وفي هذه السفرة مرنه على أساليب التجارة ، وأطلعه على ضروب البضاعة ،وصنوف الاداة والماعون التي يتعاطى التجار تبادلها وكيف يحمل كل منهم من بلده مالا يكون في غيره ثم يحمل الى بلده ماليس فيه وكيف يكون لهؤلاء الوسطاء في نقل حاج الناس من الفضل العظيم في ترقية البدائع الانسانية ماليس لغيرهم

فناهيك بما ملأ به أبو طالب ذهنه في هذه السياحة التجارية من صنوف المعارف وأنواع التجارب وفي درس كهذا من فوائد التربية العملية ماليس في ألف درس من التربية الكتابية او النظرية

ولما كان ابن أربع عشرة سنة أحضره معه في حرب الفجار — وهي حرب هاجت بين قريش وبين قيس — فرأى في هذه الواقعة كيف تعبأ الصفوف وتتقابل الابطال وكيف يصبر الشجعان وان أودى بهم الصبر الى حتفهم ، وكيف تكون نتائج الصبر وحسن التدبير في الحروب وكيف عاقبة الذين تنقطع قلوبهم جبنا وتخور عزائمهم جزعاً

ولم يباشر في هذه الحرب قتالا وانما كان ينبل على أعمامه أي يناولهم النبل أو يرد عنهم النبل .وكان ذلك كافيا لتمرنه على مواطن النزال ،ومواقف النضال وليس بخاف ان الاخذ بيد الناشيء الي معارك أبطال المبايعات، ثم معارك أبطال المقابلات والمقاتلات هو أعظم الوسائل التي تجعله أهلا للمقامات العلى بين الرجال ،حتى اذا أتاحه الله للأخذ بقوم الى سوح العز والسؤدد والصلاح والفلاح، كان نعم الدليل الهادي ، ونعم السائق والحادي

فلما بلغ خمسا وعشرين سنة عرضت عليه سيدتنا «خديجة» ان يخرج في تجارة لها الى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار وأشار عليه عمه بقبول ذلك وطاب له أضعافا فرضيت وسار بتجارتها مع الركب الى الشام ومعه عبد لخديجة اسمه «ميسره» فلما رجع بالبضائع اليها باعتها فربحت أضعافا وكان هذا بدء تاريخ جديد للسيدة «خديجة» معه

الفصل الحادي عشر

الحب الشريف

ان أشرف السير سير أهل الفضيلة وما الفضيلة إلا من خصائص النفوس ، فمن كان من عشاق الفضائل حسن به أن لا تفتر نظرات بصيرته الى النفس فهي مستقر الخوارق ، ومستودع العجائب

النفس مجلى الآيات الكبرى ومهبط الفيوضات العلى ، والمرآة العظمى التي ينكشف بها الازل والابد ، والمطبعة العظمى التي ترتسم بها الاشياء وتتكثر الصور ،

هي السلك الممدود بين مبدع الطبائع ، ومقيم الشرائع ، وبين الجواهر المتألقة الصامتة ، والظواهر المسخرة المطيعة ، فهي خليفة عليها واقفة على خطواتها ، مشرفة على حركاتها ؛ وهي مجذوبة من طرف اليها بجاذبيـة الانس والعادة ، ومجذوبة من طرف آخر الى مصدر بوارقها بجاذبية الحب والشوق ، فبانجذاب النفس الى الظواهر تأخذ الظواهر حظها من الانكشاف ، وبانجذاب النفس الى مانح الظهور تأخذ النفس

حظها من الشهود والاشراف ، فيحق لها في الحالتين أن تمجد بما ميزها به فاطرها تباركت عظمته ، وتعالى شأنه ،

أعظم خصائص النفس الحب والبغض بل ان هاتين الطبيعتين المتضادتين أعظم نواميس الاكوان والوجودات كلها ، لكن اختلفت المحبات ، وتباينت الاشواق ، وأوتيت النفس الانسانية أعظم نصيب من هاتين الطبيعتين لاتساع المحيط الذي تدور فيه ، ولاتصالها بعالم الحس وعالم الغيب وترددها بالانجذاب بينهما ، فهي ان وقفت يوماً مع الظواهر أنست بها فعشقتها لما رش عليها مبدعها من الحسن الذي هو وصفه ، وان ارتفعت الى البدع دهشت فتولهت فتدلهت لما هنالك من المجالي الازلية التي تطير السرائر شوقاً الى التمتع بها

الفضائل والرذائل ، الخيرات والشرور ، الحزن والسرور ، الرغبة والرهبة ، الاقدام والاحجام ، الكسل والنشاط ، الارتفاع والهبوط . كل ذلك من مبتدعات الحب والبغض وآثارهما . وكل درجة من هذه الاشياء فانما هي على مقاييسهما . هما بالاختصار ركنا السعادة والشقاء . فمن هدي الى تصريفهما والجري بهما على سنة مثلى فقد أهديت اليه السعادة وأوتي بالحب الشريف والبغض الشريف حظا من الخير عظيما

***

كانت السيدة « خديجة » ذات قلب طاهر والقلب الطاهر مركز الحب الشريف ، فماذا أحبت سيدتنا هذه ؟ كان قلبها تواقا الى معالي الامور ، عظيم الشغف بمحاسن الاخلاق . وقد أمد الله فطرتها امداداً عظيما

فقويت معرفتها بالمكارم ، وعظم علمها بأن الفضائل هي التي تليق بالانسان سواء وقفت نفسه مع هذه المحسوسات أم أرادت أن تندرج في زمرة عشاق المجالي الازلية .

عرفت هذه السيدة صلة النفس الانسانية بمن منه انشقت أسرارها ، وانفتقت أنوارها ، فكان لها تشوف إلى جود عظيم يفيض عليها من العناية الربانية ، كما هو شأن ذوي السرائر الصافية ، وحصل لها من هذه الحالة الطيبة قوة فراسة والفراسة نور ، فكانت تهتدي بها فيما هي حائمة الروح (١) عليه من الفضائل ، ومن أحب شيئاً أحب أهله من أجله ، فلما عرفت ابن عبدالله ووجدت فيه مايعشق من المزايا العلية ، انتثرت حبة من تلك المحبة الشريفة التي كانت بها تنشد المكارم فوقعت في محل من قلبها لتنبت شوقا إلى هذا الرجل الصالح الذي ألفت المكارم كلها لديه ، وأيقنت أن معرفتها هذا السعيد بمزاياه العظيمة ، هو أعظم الآثار التي كانت تتشوف اليها من لدن العناية المرجوة .

الآن وجدت محبة الفضائل والمحامد أعظم من تتجلى الفضائل والمحامد فيه فكيف ينفر منه قلبها ؟ بل كيف لايميل اليه فؤادها ؟ فالامانة هو ذلك الشهير فيها ، وقد سبرته في متجرها فربحت بواسطته أضعافا . والشجاعة هو المنشأ فيها على يد عظيم الهمة أبي طالب . والنباهة هو الذي تسطع في محياه طوالعها . والحكمة هو الذي تقرأ في سيماه آياتها . والعفة هو ربها ، والمروءة هو مجمع شواردها . ومحاسن الخلقة هو النسخة الصحيحة منها.

---

(١) اي فيما كانت روحها حائمة عليه . ومن العجب عثور قلم الكاتب بهذه العبارة ثم سكوتنا له عنها

فأيّ الفضل تنشد بعد هذا محبة الفضل . وأيّ المحامد تريد بعد هذه مريدة المحامد ؟ كمال خلق وكمال خلق ، جمال شخص وجمال نفس ، حنكة لم يظفر بمثلها أقرانه من الشبان ، ووقار لم يحظ بأقله الكبار ، وهمة لا تقف أمامها الصعاب ، وعزيمة لا تني أمام الثقال . قوي شديد ، حليم رشيد ، كما يقول فيه عمه أبو طالب وهو به جدير :

فمن مثله في الناس أي مؤمل ... اذا قاسه الحكام عند التفاضل؟
حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالي إلهاً عنه ليس بغافل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يُعنى بقول الاباطل
فأصبح فينا أحمد في أرومة ... تقصر عنه سورة المتطاول

فما أكثر غبطة السيدة « خديجة » إذ عرفت هذا السيد الجليل ! وما كان أجدرها بأن يتعلق قلبها الطاهر به ! وما أقوى نور فراستها إذ علمت أنه لا نظير له ! وأن سعادتها لا تتم إلا به ! وما أحقها أن تغتنم الفرصة وتسبق إلى تزوج هذا الشريف الذي جمع إلى شرف النسب شرف الخلال [1]

---

(١) مما يدل على ان أملها في نبوته كان عظيما ماروواه الفاكهي في تاريخ مكة من حديث أنس وهو الخبر الوحيد الذي روي في حبها الشريف للكمال الاعلى في شخص محمد (ص) ولو اطلع عليه المؤلف لاورده وهذا نصه:

روى الفاكهي في تاريخ مكة عن أنس أن النبي (ص) كان عند أبي طالب فاستأذنه أن يتوجه إلى خديجة فأذن له وبعث بعده جارية يقال لها نبعة، فقال انظري ماتقول له خديجة، قالت نبعة فرأيت عجبا: ماهو الا ان سمعت به خديجة فخرجت الى الباب فأخذت بيده فضمته الى صدرها ونحرها ، ثم قالت بأبي انت وامي والله ما افعل هذا لشيء ولكني ارجو ان تكون انت النبي الذي ستبعث ، فان تكن هو فاعرف حقي ومنزلتي ، وادع الاله الذي يبعثك لي . قالت فقال لها « لئن كنت أنا هو قد اصطنعت عندي ما لا أضيعه ابداً، وان يكن غيري فان الاله الذي تصنعين هذا لاجله لا يضيعك أبداً» ويؤيد هذا ماورد في كيفية بدء الوحي في الصحيح وهو أن خديجة

الفصل الثاني عشر

تفاؤل هذا وقته

كانت الكهانة شائعة في ذلك الزمان كما هو شأنها في كل الازمنة إلى زماننا هذا، وكان علماء التوراة ينبئون دائماً بظهور نبي منتظر وبعضهم كان يقول إنه سيظهر من العرب. والراهب بحيرا تفرس في ابن أخي أبي طالب إذ كان معه صغيراً وقال له : سيكون لابن أخيك هذا شأن . ولم يكن بعيداً من المألوف أن يخبر بعض الناس بالمغيبات ولكن لم يكونوا يصدقون كل شيء من هذا القبيل ولا يكذبون كل شيء كما هو الشأن في أهل زماننا أيضاً

وقد كثر التكهن قبيل ظهور النبي (ص) ولكن أكثر الناس لم يكونوا يبالون بتلك الاخبار لأنهم تعودوا أن يروا شيئاً من كذب الكهانة مع مصادفة صدقها أحيانا فلم تكن الثقة بها في الحقيقة تاما ولا سيما في الامور العظيمة

قالت له حين خاف على نفسه عاقبة ما أصابه من الجهد ، عندما ظهر له الملك « كلا والله ما يخزيك الله ابداً ، انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » وكذا ما ثبت من انها كانت تعد له الزاد لينقطع الى التحنث في غار حراء . وروى الواقدي بسنده الى نفيسة بنت أمية اخت يعلى قالت كانت خديجة امرأة شريفة جلدة كثيرة المال . ولما تأيمت كان كل شريف من قريش يتمنى ان يتزوجها فلما سافر النبي (ص) في تجارتها ورجع بربح وافر رغبت فيه فأرسلتني دسيسا اليه فقلت له ما يمنعك ان تتزوج ؟ فقال « ما في يدي شيء » فقلت فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة ؟ قال « ومن ؟ » قالت : خديجة ، فأجاب

وبينما نساء من قريش مجتمعات في عيدلهن في الجاهلية إذ تمثل لهن رجل فلما قرب نادى باعلى صوته يانساء أهل مكة سيكون في بلدكن نبي يقال له أحمد فمن استطاعت منكن أن تكون زوجا له فلتفعل . فكذبنه ورمينه بالحصى وكانت فيهن «خديجة» فلم ترمه كما رمينه .

لم يكن هذا المنبيء كاهنا معروفا فلذلك احتقره النساء لانهن لا يعبأن في الغالب إلا بأهل الشهرة . ولكن كان قومهن يعتقدون بالهاتف وهو على اعتقادهم روح ينطق بالشيء من حيث لا يرى أو يتمثل بصورة بشرية فيقول قولا من هذا القبيل ثم يغيب ، فكأن السيدة « خديجة » اعتقدت ان هذا المنادي هاتف فلم ترمه كما رماه ترائبها ولعلها صدقت اذ ذاك وتفاءلت خيراً ورجت أن تكون صاحبة هذا الحظ

وان صح ظننا هذا بالسيدة كان لنا دليل جديد على عظم تطلعها الى بركات الجناب القدسي فان الرغبة في تزوج المنعم عليهم بالنبوة لا تعظم إلا من العارفة بذلك الجناب الاعلى الذي يتفضل بخاتمة النبوة على من يشاء

كانت النبوة معروفة عند قومها بما سمعوه من أخبار أنبياء جيرانهم بني إسرائيل ومعروف أن النبي رجل كالرجال ولكن يصطفيه الله ويرفع درجة نفسه على درجات سائر نفوس البشر حتى يطلعه على مالم يطلع عليه أحداً من أسرار عالم الغيب . وليست النبوة ملكا أو حظوظا زائدة من نعيم الدنيا بل جل الانبياء الذين سلفوا كانوا مقلين ولم يكن حظهم الا مقاومة الناس إياهم وتعذيبهم ، والنساء إنما يرغبن بالنعيم والرفاهية ورغد العيش وكثرة الحلل والحلي ، وكل هذا لا يرجى لدى الانبياء الذين تنصرف أنظارهم عن متاع الغرور ويلتفتون الى مافيه غبطة الروح فلا تتصور السعادة

من النساء عند الانبياء الا اللاتي أنعم الله عليهن بسلامة الفطرة وقوة الاستعداد كالسيدة « خديجة »

ولما رجع عبدها « ميسرة » من الشام في تلك السفرة التي ذهب بها مع الهاشمي « محمد » أخبرها بأحوال غريبة رآها منه لا يكون أمثالها إلا لمن سمعت أخبارهم من الصالحين المباركين فما لبث أن رن في قلبها صدى ذلك الصوت الذي سمعته باذنها ، صوت ذلك المنادي في النساء المجتمعات اللاتي كانت معهن في العيد : وكان هذا الصدى الذى رن في قلبها تتألف منه هذه الكلمات

﴿ تفاؤل هذا وقته ﴾

الفصل الثالث عشر

الخواطر في قلب خديجة

كانت (خديجة) تعرف أن ليست النبوة بالكسب والاجتهاد وانما هي محض عطاء واختصاص من الحي الازلي الدائم ولكن كانت تعيد على خواطرها ماحكاه لها عبدها (ميسرة) ويرن على أثره ذلك الصدى في قلبها فتقول في نفسها أي مانع يمنع رجائي بفضل الله بأن أكون صاحبة الحظ من الرجل المبارك الذى أنبأ به الهاتف ؟ أى مانع يمنع فضل الله عن قومي اذا أراد أن يخرج منهم ذلك الانسان الذى يقول عنه علماء التوراة وكان لها ابن عم من جملة علماء هذا الكتاب

ثم اذا مر بقلبها خاطر آخر يقطع عليها هذه الآمال وينهاها عن هذه الاحلام — التي كانت تراها في اليقظة — ترجع الى الشيء المحقق

الذي لا ينازع فيه خاطر ولا يماري فيه حجى وهو ما تحلى به ابن عبد الله. من صفات الكمال . فتتمثل في فكرها تلك الطلعة السنية ويلمع أمامها برق. من تلك العينين الدعجاوين . وتنسى الشمس وسائر الدراري حين تذكر دائرة ذلك الوجه المتألق . ويقوى ايمانها بالملائكة إذ ترى في هذا الشخص البشري آيات القدس والطهارة . فتقول في نفسها أفليس حسبي. أن أكون ربة النصيب من فتى قريش الوحيد الذي كله الله إن لم أكن صاحبة الحظ من الصالح الذي أنبأ به الهاتف

ثم تتراجع اليها الخواطر و يتقلبها ذلك الحب الشريف الذي نمت حبته في قلبها على ضروب من الحيرة فتقول في نفسها مرة أخرى : من لي بهذا المكمل الذي مال اليه قلبي ، وحامت حوله خواطري ، وتكفت في دائرة محاسنه نفسي ؟ أليست تمنع العادات بأن أكون أنا الخاطبة ؟ أف للعادات ما أثقل أحكامها ، وما أظلم قضاءها ، وما أشد عتمة مسالكها ، وما أسوأ عواقب الجمود عليها ، وما أبخس صفقة الذين لا يتزحزحون عنها !

نعم نعم أف للعادات فكم أوقفت بعض الاجيال في سجون ضيقة مظلمة من التقليد الضار . وحجبت عنهم أنوار التبصر والتدبر والتفكر فانطمست عليهم سبل الارتقاء في معارج الاستحسان والتحسين . وغمت عليهم مطالع السعادة الحقيقية للنفوس

أف ثم أف للعادات فهي قاطعة الطريق على نتائج العقول تزج بها في مهاوي العدم . أو تذرها في سجن أقفر ممنوع عنها كل ما يربها . ويا عجباً لبني آدم الذين يضعون العادة في هذا المكان من الحكم على نفوسهم والقضاء على عقولهم وقلوبهم ، أليس لهم ما يذكرهم بأن العادة من صنعة

أيديهم وتصوير أحلامهم؛ أليس لهم مايبصرهم بأن العادة يجب أن تكون تابعة لامتبوعة ، ومنقادة لاقائدة ، حتى اذا فتحت أمام بصائرهم أبواب أخر لما هو خير ودعوا عادتهم تلك محمودة على قدرمانفعت ، ومذمومة على مبلغ ماأضرت ، استقبلوا أخرى مصاحبيها على مقدار مايدوم من أسبابها ، وينفع من أبوابها

تبرمت « خديجة » بالعادة كثيراً ، وتأففت من تقلبها طويلا ، وسردت كل سيئات الجمود عليها في نفسها التي هي أعلى من نفوس الغافلين عن المقدمات والنتائج . لما خصها الله من سلامة الفطرة ، وفضل الفطنة ، وقوة آلة المعرفة ، ومزيد حرارة الهمة .

ثم عادت تعـذر الضعفاء الذين لايستطيعون التغلب على الثابت الراسخ وهم الاكثرون وتذكرت أسباب رسوخ بعض العادات ومنها وفرة فوائدها في أوقات سلفت ، وأحوال مضت ، ورأت أن الناس يرثون من السالفين كل شيء ولا يميلون إلى التغيير حتى يميل بهم الدهر ميلة شديدة على يد عاصف من الحوادث ، أو هبـة شديدة من ارادة بعض الاشخاص ، وكم دكت الارادات القوية أطواداً من العادات

ربما كانت هذه السيدة تستطيع التغلب على العادة فلا تجد بأسا بأن تخطبه بنفسها لأنها كانت قوية الارادة . ولكن من لها بأنه لا يرد خطبتها وهي أرملة في الاربعين من العمر وهو في الخامسة والعشرين يشف محياه عن ماء الفتوة ، وينشر شذى الشباب ، والمرأة مهما قويت ارادتها تتذكر الخيبة فيغلب إحجامها إقدامها وهذا بعض أسباب العادة في أن تكون هي المخطوبة

ماأصعب الخواطر على المرأة التي تجـد ضالتها من السعادة ولا

تستطيع الاقدام على تحصيلها : هي صعبة على الرجل أيضاً ولكنها على المرأة أصعب لانها أضعف على كل حال . بيد أن ضعفها الذي زينها الله به في عين الرجل به تمت نعمتها وعلت كرامتها لديه . فقوة الخفر والحياء من ضعفها ، وذلك أعظم حلية طبيعية تزدان بها . ومن عطل من هذه الحلية منهن رغب عنها الكرام من الرجال . وشدة الرحمة من ضعفها وما أعلى وأجمل وأزين هذا الضعف الذي بدونه تمقت المرأة . والجبن من ضعفها ولولاه لما حصل الاعتدال في اقتسام الاعمال بينها وبين الرجل

فماذا تصنع قوة ارادة السيدة « خديجة » أمام شدة خفرها وحيائها وماذا تنفع شجاعتها أمام خشيتها من الخيبة ، وماذا تجدي قوة عزيمتها وصبرها عند المزعجات من خواطر الحب الشريف الذي ملأ قلبها الطاهر بعد أن كان حبة صغيرة ألقيت فيه

اللهم رحماك فليست القلوب من حديد ، ولم تقد من صخر ، إن نسيم الخواطر فيها يصدع إن جاءها برائحة اليأس ، ويرأب إن أتاها برائحة الرجاء ، وكذلك كانت خواطر السيدة «خديجة» صادعة ورائبة ، بيد أن رجاءها كان أغلب ، ولو كشف لها الغطاء عما يحف بها من السعادة المغيبة عنها إذ ذاك لانقلب رجاؤها يقيناً . ولكن لتستكمل الغرائز حظها من النفوس كتب على الانسان أن يغيب عنه آتيه من السعادة والشقاء فترى منحوساً يضحك ويلعب والشقاء يساوره عما قريب يأخذه بياتا ، أو يصبحه وساء صباحا . وترى مسعوداً يتململ ويمسي ويصبح على مضاجع الحيرة والارق واجما سادما والسعادة من حوله مرفوعة بأجنحتها ستقف عما قريب على رأسه وتشمله ويتبارك بها بيته

فما أشد حاجة هـذه السيدة السعيدة في مواقف حيرتها تلك إلى هاتف يبشرها بقرب اتصال السعادة التامة بها ، ماأشد حاجتها إلى من ينبئها بأنها هي الجوهرة النفيسة التي أعدت لذلك الذي ميزته العناية الازلية أكمل تمييز . ولكن ليظهر مزيدفضلها في الميل إلى رب الفضائل والمكارم التي لا تبارى حجب عنها كل هاتف وحبست عنها البشرى حتى أخذت الخواطر حظهامن قلبها الكريم ، وتمكن منه كل التمكن ذلك الحب الشريف ، لذلك الذي أجمعت فيما بعد قلوب الملايين التي لا تحصى على حبه

الفصل الرابع عشر

الزواج

لا بدع اذا قلب الشوق نفوس المحبين في يد الخواطر كالكرة بيد اللاعب فان قوام الكائنات بشوق ذراتها بعضها إلى بعض ، وكان جديراً أن يتجلى هذا المعنى بزيادة في غريزة خليفة الله في الارض نعني الانسان كيلا يكون بنو آدم وحواء أنقص من الجمادات حظاً في هذا الناموس الكبير الفائدة .

فبعد أن تمكن من « خديجة » الشوق الشريف هذا التمكن أصبحت جديرة أن تتناول هدية سعادتها ، وتنكشف لها الحجب عن الرحمة التي ترعاها ، فهبط على قلبها خاطر جديد كان به الوصول الى النعمة الجديدة

خطر لها ان تبعث الى الذي سكنت مكارمه ومعاليه فؤادها رسولا تسبر به رغبته وتستنبيء به سعدها مما ينزل على قلبه من الالهام بهذا الشأن ؛ وساقها الى هذا الخاطر قوة رجائها بالله سبحانه وحسن ظنها بان هـذا

الكمل لا يرد رغبة مثلها وهي الجامعة لصنوف من المعالي يقل اجتماعها في سواها

كانت لها صديقة اسمها (نفيسة) (وهي أخت يعلى بن أمية) فقصت عليها حديثها واثتمنتها على هذه الرسالة ولم يكن بالصعب أن تؤدي الصديقة هذه الأمانة لانها ستتكلم كأنها صاحبة رأي تشير به حتى اذا وجدت مجالا كانت وكيلة بابداء القبول

لم تكن النسوة اذ ذاك محتجبات ولم يكن ممنوعات من مكالمة الرجال فلم تكن رسول (خديجة) محتاجة الا لشيء من قوة الجنان امام ذلك المهيب العظيم وقد أمدت من سعد مرسلتها بحظ منه

ومن يكن راعيه السعد فقل ما شئت في تيسير ما يرجوه

جاءت (نفيسة) هذه ابن عبدالله وفي القبيلة الواحدة يعرف الناس بعضهم بعضا فقالت له ما يمنعك ان تتزوج ؟ فاعتذر لها بقلة المال اللازم للقيام بشؤون العائلة قالت له فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة قال لها ومن ؟ قالت له (خديجة)

قالت هذه الكلمة وصمتت تنتظر ماسيبدو منه، وأحدث هذا الكلام حركة في فؤاده وبأي شيء يتحدث ذلك الفؤاد الطاهر حينئذ الا بقوله : خديجة الشريفة المعروفة بالطاهرة، هي المناسبة، هي الموافقة، هي الصالحة، اذهبي يانفيسة فاني سأخطبها

فرجعت تحمل هذه البشرى وكانت ميمونة النقيبة في هذه الرسالة فالله يعلم كيف أجزلت السيدة خديجة كرامتها، ولم تنتظر كثيراً حتى أتى خاطبا ومعه عمه حمزة فقال عمها عمرو بن أسد بن عبدالعزى « هو الفحل لا يقدع أنفه » وهو مثل عربي يقال للكفؤ الذي لا يرد إن خطب

ما كان هذا الخاطب الكفؤ غنياً اذ ذاك ولكنه لم يكن أيضا معدما فهو من آل عبد المطلب العامرة بيوتهم بقرى الضيفان واغاثة اللهفان ففي هذا السبيل تذهب أموالهم ثم يخلف الله عليهم من وجوه المكاسب وأبواب المرابح بما أوتوا من الهمم والشمم، ولم يكن اعتذارمخالك اعتذار المعدمين وانما هو اعتذار المتربص أن يتوفر له مقداراً أكبر. فمع قلةماله في ذلك الحين أصدقها عشرين بكرة لان اعطاء الرجل للمرأة صداقا سنة عربية لم يكن ليحسن تركها

والزواج العربي ليس محتاجا الى رؤساء ديانات، ولا تلاوة الرؤساء صلوات. بل هو عقد كسائر العقود المدنية يتوثق برضا المرأة وأوليائها ورضا الرجل. فبخطبة من الرجل وتقديمه الصداق واجابة من المرأة وأوليائها تصبح المرأة زوجة شرعية للخاطب. وهكذ أصبحت (خديجة) الطاهرة زوجة (محمد الامين) بكلمة أعلنها عمها عمرو بن أسد فما أعظمها من كلمة جمعت بين القمرين!

الفصل الخامس

بيت خديجة بعد الزواج

وبدأت السيدة «خديجة» بعد هذا القران السعيد تزدادمعرفة بهذا الجوهر الكريم الذي أتاحه الله لها فألقت الى يدهذا الامين بكل ماتملك ولم يرعها أن الكرم المستحكم في سجاياه سيحمله على اخراج نصيب كبير من هذا المال الى الضعيف والعائل فان سيدتنا لم تكن — مع تقديرها — بالشحيحة الكافلة على المال النائي بل كانت قد خلقت لتكون مساعدة على

الجود وهل بعد معرفتها بهذا الكفؤ الشريف ترى لنفسها معه أمراً ينافي أمره ، أو رأيا يغاير رأيه ، وهي تلك العاقلة الحكيمة المستعدة ان تزداد كمالا كلما أشرق لها من سماء الفيض الالاهي نور منه

وأصبح هذا البيت مثابة للمضطرين وأمنا ، فقصدته الايامى ، وشبعت فيه اليتامى ، وخففت فيه أحمال كثيرين ممن حنيت ظهورهم بكثرة الآل ، وقلة المال .

كانت تلك البلاد احيانا تصاب بعسر بل كل بلاد العالم لا تسلم من العسر على الدوام فمساعدة الموسرين في زمن العسر للمعسرين أمر تقضي به الانسانية لكن قليل من الناس من يكون لهم حظ بالتغلب على شياطين الشكوك والاوهام التي تنهى عن الانفاق خشية الاملاق ، وأما سيدتنا فكانت ترى إنفاق زوجها ومساعدته للمعسرين وأخذه بيد العاثلين من جملة المزايا العالية التي تقر بها عينها

وفي احدى الازمات كانت ملائكة الرحمة تحوم في ذلك البيت حول أحد الصبيان وتطوف في آفاق نفسه لتطهرها من كل شر حتى لا يخرج من هذا البيت الا وهو امام للناس في الخير والصلاح

وكان هو لاهيا عما أعد له ، وعابثا بمثل ما يعبث به أترابه ، ولم يكن هذا الصبي يتيما بل كان أبوه حيا ولكن أبناء السعادة ـ أبناء المجد الابدي ـ ابناء المجد السرمدي ـ تستأثر العناية الازلية بكفالتهم وتربيتهم بصورة خاصة وظاهرة يراها من استعدت بصائرهم للاطلاع الجيد

لم يكن أبو هذا الصبي ليسمح وهو حي أن يتربى كالايتام في غير بيته لانه هو ذلك الشهم الشهير والشريف الخطير «أبو طالب» ولكن اشتداد

الأزمة في احدى السنين اضطره أن يقبل رجاء أخيه « العباس » وابن أخيه « محمد الامين » بان يأخذ كل واحد منهما ولداً من أولاده تخفيفاً عنه فكان هذا الاسعد الذي أخذه الامين هو علي الذي صار الامام أبا الائمة ، وبدر سماء السيادة في الامة

كانت تربية علي في هذا البيت من جملة المكتوب للسيدة «خديجة» من حسن الحظ فان الغيب كان يعده لامر جليل له علاقة بهذا البيت

لعله لم يخطر في بال أهل هذا البيت اذ ذاك أن هذا الصبي الذي يدرج أمامهم فيسرون به سيكون الواسطة الوحيدة لحفظ نسلهم. ومن أين كانت تعرف السيدة «خديجة» أنه لا يعيش لها من الذكور ولد وأن هذا الصبي الصغير قد أعده الغيب ختناً كريماً وبعلا صالحاً لبنتها الصغيرة. وكيف تعلم أنه لا يتسلسل لها عقب إلا من تلك الكريمة فاطمة الزهراء؟ وانى يخطر في بالها أنها انما كانت تربي هي وزوجها جداً لعترة تتصل بهذا البيت سيعدها العالم من أشرف العتر وستبقى مباركة في الارض دهوراً طويلة عالية المنار، عظيمة الشأن،

نعم كل ذلك لم يخطر في البال اذ ذاك ولم يكن الذي في القلب الا القيام بالواجب الذي يقضي به التضامن

نعم! نعم! كل ذلك لم يخطر في البال ولا نوى سيد هذا البيت مكافأة عمه على تربيته التي سبقت له فان بين ذوي القربى لا توجد المكافأة بل يوجد التضامن، ولكن كان هذا البيت المملوء نعما يتقاضى وجود نفوس كثيرة تشاركه في تلك النعم، لأن لأهله نفوسا لا تعرف الاستئثار، بل تراه من العار والشنار، لاسيما اذا بئس الجار

وقد استفاد من مادةهذا البيت كثيرون كماأشرنا اليه أما علي فانما خصصناه بالذكر ليعرف من عرفه أو سمع بمناقبه العالية وفضائله الزاكية كيف كان هذا البيت السعيد مسعداً للارواح ، كما كان مسعدا للاشباح ، وليعرف القاريء بسهولة أن البيت الذى أخذ ابن أبي طالب آدابه فيه منذ كان صبيا قد كان مهدا لأكرم الآداب وأعلاها فان عليًّا المرتضى هو من عرفه العالم كله ، هو ذلك الامام الاكبر الخليق أن يكون مثال القدس وزكاء النفس ، هو مجمع المعالي وملتقى الاسرار العظمى ومظهر الولاية الكبرى

فما أكرم هذا البيت السعيد وما أعظم بركاته ! قد رأينا الامين يجد فيه مجالا للتخفيف عن المثقلين ، والتنفيس عن المكروبين ، وفيه وجد القصاد صدورا رحبة ، وأيديا مبسوطة ، ولديه خيم الجود والسخاء ، كما خيم العدل والوفاء ، ومنه أشرقت الآداب العالية ، والتربية الكاملة ، وماذا نرى من بركات هذا البيت بعد ذلك يا ترى ؟

الفصل السادس عشر

(العمل الروحي)

أشرفنا الآن على بحر كثيرة لججه صعبة مسالكه ، وصلنا الى ساحل هذا البحر ولا بد من جوزه وأكثر السفن لا يوثق بها في غمراته ، ولابسو ثوب الهداية رأس مالهم الدعوى ، وما حيلة الحائرين غير الرجوع الى الله في الجهر والنجوى ؟

ههنا نبأ جليل تحار العقول المستقلة بفهمه ، وتشتاق أن تقف على روحه وحده ورسمه ، هنا قد بلغنا من سيرة هذه السيدة الجليلة أن بعلها كان من

دأبه أن يتعبد بعض الاوقات في غار من جبل قرب مكة اسمه حراء فما هذا التعبد ؟ وكيف هو ؟ وما الذي ساق نفسه اليه؟ وأي دين فرضه عليه ؟

هذا هو النبأ العظيم الذي تتمسك بنا العقول المستقلة اذ تسمعه ولا تدعنا نجوزه الى غيره من غير أن نوضحه، واذا أخذنا بايضاحه نخشى أن نبعد بالقاريء عن سياق السيرة ولكن يقوي عزمنا على هذا الايضاح ظننا بأن الراوي الذي يشرح كل دقيقة فيما يمر به من حكايته قد يفيد القراء أكثر ممن يسرد الاخبار سردا

إن الاديان كلها رسمت أعمالا اسمها عبادات ولكن بعل السيدة « خديجة » لم يكن تابعا اذ ذاك لدين لأن دين قومه كانت عبادته عبارة عن تمجيد بعض الاحجار التي هي عندهم تماثيل أشخاص مقدسين ولم يكن هو قد تعود هذه العبادة التي لهم

العبادة التي عرفت في الاديان كلها بحسب الظاهر أعمال وحركات يرسمها رؤساء الدين من أنبياء وغيرهم ، أما لبها فأشواق روحية تقوم في نفس العابد أمام معبوده ويصح أن نسميها عملا روحيا حينئذ

كان بعل هـذه السيدة يأتي في غار حراء بعمل روحي تتوجه فيه روحه تلقاء باريء السموات والارض ومشرف مكة وسائق نفوس العرب إذ ذاك اليها ، ولم يكن معها أعمالا رسمية

إن البحث عن سبب تسمية تلك الاعمال الرسمية عبادة في لغتنا يكلف به مشرح اللغة ، والبحث عن أسباب اختيار الاقوام السالفين هذه الصور والاعمال المخصوصة تحت اسم العبادة يكلف به مشرح التاريخ ، وأما البحث عن الاشواق الروحية أو التعبد المحمدي في « حراء »

فكاف به كاتب سيرة السيدة « خديجة »

العبارة لاتشفي الصدر في تجلية هذه المعاني ولكن شدة ارتباط هذا الموضوع بهذه السيرة داعية الى السير في هذا البحر المفخم

قد سمعنا في سيرة زوج هذه السيدة أن روحه كانت من أعلى الارواح ونحن نؤمن بهذا ولكن اذا نحن لم نتعرف بالروح ولو قليلا فماذا يكون معنى ايماننا بهذا ؟ لاجرم أن تعرفنا بالروح ضروري في هذه المقامات وهو أمر يشتهيه كل امرىء لان كل واحد منا تخطر في باله هذه المسألة :

مانحن ؟

هذا سؤال قد علم الذين بعد نظرهم في ماضي البشر أنه من جملة فضل الله عليهم، وهو أساس مايسمى في لغتنا دينا وديانة وملة ، وأحد الاصول والاسباب في ترقي هذا النوع الانساني وتكمله

هذا سؤال تحيط به محارة طال وقوف العقل فيها . ههنا مرسى سفينة العقل الذي يحاول معرفة نفسه ومنها يبتدىء مجراه لأجل إدراك هذا الجوهر

مواقف الباحثين كادت تتساوى أمام صعوبة هذا السؤال اذ لا براهين عقلية قطعية في نفي شيء أو اثبات شيء في جوابه . ولكن اذا عزت هذه البراهين لايعدم عشاق هذا المطلوب آيات كثيرة في الوجودات ، ومن فضل الله على أهل هـذه الصورة البشرية جعل قلوبهم مستعدة لقبول ماتأتي به هذه الآيات من ضياء ،ولا يحرمه الا قليل ترمن فيهم الحيرة لاسباب محسوسة وغير محسوسة

هذه الوجودات قد ملئت آيات فاذا حالت دونها الحجب لجّ العقل في محارات أو عمايات ، واذا بدت لايحجبها حاجب نهج في هدايات ، انها لمن تأمل مراتب وصفوف . ولكل وجود قوة ولكل قوة أثر . واختلاف القوى وآثارها ، هو على مقدار أشكال الوجودات وصورها وحيزها ، ولما رزق الانسان هذا النطق الواسع وضع أسماء لكل مالاح له من وجود وظن المسكين أنه بوضع الاسماء أحاط بالحقائق وهي لم تزده عنها إلا بعدا

الانسان بعض هذه الوجودات وفيه قوى تحتاج حسب عادته الى أسماء : فالروح للانسان اسم للقوة العظمى التي فيه ، اسم لما يكون به الانسان مستقلا متميزا يقول أنا ويقال عنه هو وان خفا أثره

آمن الناس بهذا الاسم متفقين ولكن فيما يدل عليه قد اشتد تباينهم وحار نظرهم في ادراك حقائق هذه القوى التي في الانسان وفي كيفية علاقتها بهذا الجسم البشري الذي متى برحته أصبح لا فرق بينه وبين كثير من صفوف الجمادات والذي يزيد حيرتهم شدة تسامي بعض الارواح كروح من سعدت بقربه سيدتنا صاحبة هذه السيرة

بحثت كالباحثين ، وحرت كالحائرين ، ثم وجدت كالواجدين ، فما ألذها على القلب من حيرة عقباها بلوغ الغاية والحمد لله رب العالمين

اليك حديث نفسي بشأنها : أفقت اليوم من النوم ونصل حسي وشعوري من غلافه ، كما نصل هذا الفجر من غمده ، فوجدتني كأنني وليد هذه الساعة ، لانني قبل هذه اللحظة لم أكن أرى هذه الاكوان ، ولم احس بما فيها من الاصوات والالوان ، ولم أكن أشعر بملائماتي ومؤلماتي . فكأنني كنت غير هذا الموجود الجديد .

أين كانت لذتي برؤية هذه القبة وأنسي بها على هذا البساط؟ وأنى كان ابتهاجي بزواهر هذه الزرقاء، وزواخر هذه الغبراء ... ومن حولي الآن أغاني طيور، ورقص غصون، واريج زهور، وبدائع نقوش، وترتيب صنوف، وحركات نور، وتجليات سكون، وفي أنا آثار انفعال من كل هذا قد تحرك بها ما اسمه فكري ثم تحرك بها ما اسمه لساني فسمعتني أقول (سبحانك ربنا ما خلقت هذا باطلا)

سبحانك يافاطر ياباريء يامصور ولك الحمد ! أنا متذكر الآن أنني أبصرت هذه المرائي، وسمعت هذه الاماني امس لما بزغ الفجر بزوغه هذا فأين ذهب إبصاري وسمعي بين ذينك الابصار والسمع اللذين كانا أمس وبين هذين الابصار والسمع اللذين اتياني الآن؟ وأنا متذكر أن هذا الامر وقع لي مرارا كثيرة الوفا من المرات فما هذا الاحتجاب ثم الظهور، وأين كان الاحساس محتجبا قبل أن عرفته أول مرة؟

رباه ! من اسائل عن هذا ..؟ ان هذه الصوامت التي من حولي لا تجيب ! لعلها لا تسمعني، أو لعلي لا أسمعها، أو لعلها لا ذكر لها في هذه المسائل، وكيف أصبر على جهلي بشيء يتعلق بي، وكيف لا أبحث عن اصل احساسي وعن احتجابه ؟ ألا يهمني أن أعرف هل أمره كأمر هذه الشجيرات يتحات ورقها ثم يعود ثم تيبس مرة واحدة فتصير حطبا ثم رمادا؟ أم امره كأمر هذه الشمس يظهر نورها على جهة ثم يغيب عنها ثم يعود اليها وهو لا يزال أبدا؟ كيف أقنع للنفس الانسانية بحالة هذه الشجيرات وهي لها من الخواص والآثار ماليس لشيء غيرها في هذه الارض ؟ كلا سأسائل ثم كلا سأسائل!

رفعت رأسي الى السماء فألفيت بواهر ولا مجيب ، وأهويت به الى الارض فألفيت بواهر ولا مجيب !

فضاء أمامي ، لا أعرف له ساحلا وحدًّا ، تارة يفيض نورا ، واخرى يحتجب بالظلمات ، أراني وأرضي محوا ين فيه ولا أعرف من هذا المتن العظيم الا اسماء وضعوها له لا تشرح كنها ولا تؤذن بدلالة كافية

تتلاعب فيه النسمات لعلها ناسية أن الامر جد ، وماهو بالهزل واللعب ، وتتناغى فيه الاصوات كأنها تحسب ان في كل موجود دماغا يأخذ بحظ منها ولعل حسابها خائب !

بيني وبين كل ماهو محمول في الفضاء مثلي علاقة قد عرفتها بهذا النور البازغ ، فهل بزغ هذا النور لاعرفها أم لتعرفني ، وهل كانت لي أم كنت لها أم كنا جميعا لهذا النور أم كان هو لنا ، ولكني أعرف بانورانه لولاك لما عرفت شيئا

سلام عليك ايها النور ! ياحاملا نعمة المعرفة الينا ، وشكرا لمن تسبح ايها النور بجلاله ، وتهدينا الى آيات جماله

بالنور عرفت ماعرفت ولكن لست ادري كيف عرفت ، قد نقشت السموات والارض على عظمتها في لوح لا يكاد يحس في دماغي ، فهذا اليم الذي يعج الآن أمام غرفتي اصبح لا شيء عندي على اتساعه لانه محدود وهذه الشمس العظيمة التى بدأت تبزغ هذه الساعة قد غدت صغيرة في عيني لانني احطت بها ، وهذه الارض التى اراها كسرير لي قد تلاشت في نظري : اذ وجدتها هي وكل بحورها ذرة طافية في ذلك اليم الذي لاساحل له ، ادركت في هذه الساعة أن هذه الاشياء كلها مهما عظم حجمها

فهي كالصفر بالنسبة الى مالا يتناهى ، فعلمت ان ليس فيما أحاط بحسي ما يدفع عن فكري عطشته

راقني جمال هذه الكائنات ثم حيرني منها انها كلها مسخرة لنا وما نحن لها بمسخرين فهل نحن على صغر حجمنا اكرم معنى منها ؟

تركت حيرتي ههنا والتفت الى هذه الشجيرات التي اراها تتزين كعرائس الانس وسألتها فلم تجب او لم افهم حفيفها ، وانثنيت الى هذه اليمامات الراقصة باعناقها فسألتها فلم تجب اولم افهم هديلها ، لكنني استأنست بهذه وتلك اكثر من استئناسي بالمتحجرات لاشوق يخالطمنها الجنان ، ولا حركة لها الا على يد الانسان ، وطال أنسي بهذه الخضر المترنحات ، والورق المتغنيات ، حتى كدت أفقه حديثها ، وأفسر تبيانها ، هذه ذكرتني بمعنى الحياة وأعادتني الى نفسي وهي ضالتي المنشودة وبها الهدى الى ما أنشده

لم أجد غير نفسي يجيبني عن نفسي بعد أن ساح حسي وفكري في هذه العوالم المحدودة . . إياها ناجيت ، وكلامها وعيت ، فهي التي حدثتني أني لست الا ذرة صغيرة جداً سابحة في هذا الفلك ، وفي هذه الذرة الصغيرة ذرات كثيرة كل واحدة منها بالنسبة الى الذرة الجامعة هي كواحد من ألوف ألوف الالوف ، وفي كل واحدة توجد الحياة ولكن ليست كلها مركزاً للحياة لاننا نجد أن ألوف ألوف من هذه اذا أفسد وضعها لا تزول الحياة ولكن هناك بعض ذرات اذا أفسد وضعها تزول الحياة كلها من جميع هذه الذرات التي يتكون من مجموعها الجسم فهذه الذرات القليلة التي هذا شأنها هي مركز الحياة

أعظم مجالي الحياة في نظري هو الادراك الفكري وهو قار في ذرات قليلة لا يحاط بها

أدهشني هذا الموقف الذي وصلت اليه ، وهذا المرأى الذي وقفت عليه . حيرني من هذه الذرات أن تسع صور السموات والارض وصور أعمال البشر منذ كانوا الى اليوم . وحيرني منها أن هذه النتائج العظيمة التي تصدر عنها انما تصدر اذا كانت بوضعها المخصوص وما أسرع زوال هذه النتائج اذا اختل وضع الذرات

رأيت هذا الامر العجيب ولكن لا مستقر للفكر عند هذا المرأى إذ قصاراه أني عرفت شيئا صغيراً جداً جداً يسع أشياء لا تحصى مع أني انما أبغي أن أعرف ماهو ذلك الشيء الصغير مبناه جداً جداً العظيم معناه جداً جداً ، ماهو ذلك الشيء الذي بوجوده على حالة مخصوصة يكون هذا الجسم متحركا حساسا يحيط بالسموات والارض . وبتغيره يغدو هذا الجسم ترابا صامتا صابراً تحت الاقدام ، ماهي تلك الحالة المخصوصة ؛ وما هو تغيرها وكيف نظامها ؛ هل هو في احاطته تلك تابع لهذا النظام أم النظام تابع له ؛ هل هو يحتاج إلى هذا النظام بعينه أم يستطيع أن يؤلف نظاما آخر متى تغير نظامه هذا ؛ وإن كان تابعاً لهذا النظام بعينه فهل وجدت هذه الصبغة لتزول بأسرع من لمح البصر بالنسبة إلى عمر غيرها على ما يتخلل وجودها من الاحتجابات ؛

محارات بعد محارات ، ولكن تلوح خلالها آيات ، إذ قد ملأ لنا رب الوجود أمثالا ، وأتاحت لنا معرفتنا بالامثال أن حقائق الاشياء محتجبة والظاهر انما هو آثارها : فهذا النور الذي يملأ الفضاء لانعلم كنهه ، وهذه الشمس وما حولها لا ندري كيف قامت ، قصارانا أنا عرفنا سبحها

في هذا الفضاء، لا يسندها عمد، ولا يعتريها سكون، وهي مع ذلك سائرة بنظام، ودائرة بإحكام، لا تخرج عن مستقراتها، ولا تحيد عن مجاريها. ولكن ماهو ذلك السر الذي قامت به هذا المقام؟ سموا شيئاً من ذلك بالجاذبية فهل هذه التسمية دالة على الكنه والحقيقة؟

إن قصارى مانعرفه من هذه المركبات أنها قابلة للتحلل فاذا حللناها انتهينا إلى عناصر قليل عدها لا تتحول ولا تتحلل هي الامهات، ثم هي تنتهي إلى أم واحدة لا نعرف من أمرها شيئا!

المشاهدة هي أكبر وسائط معارفنا، ولكن آلة هذه المشاهدة عاجزة عن أن ترينا الاشياء كما هي، ولو اقتصر الامر عليها لكانت علومنا بهذه الكوائن خطأ من أولها إلى آخرها

هذه الشمس التي نحن وأرضنا في نظامها الكبير أقل من حبة رمل في جبل عظيم ـ ليست أمام المشاهدة الخصوصية لكل واحد منا إلا كمصباح بسيط يشتعل ساعات وينطفيء ساعات، وماهي إلا بحجم كرة مما يلعب بها اللاعبون.

على هذه النسبة من الخطأ نرى كل شيء أقل من حجمه وعلى خلاف وضعه، فقد نرى واحداً وهو متعدد، وبسيطاً وهو متركب، وساكناً وهو متحرك، وصغيراً وهو كبير، حتى نصل إلى ماهو صغير جداً فلا نراه البتة كما دلتنا التجارب بعد أن اهتدينا للآلات الصناعية التي تساعد بواصرنا الطبيعية أيما مساعدة.. بهذه الآلات استطعنا أن نرى أنواعا من الحيوانات كانت خافية على الابصار دهوراً دهارير. ولعلنا سنهتدي إلى مايرينا أصغر من تلك الصغائر، ونحن في مثل هذه الهدايات العظيمة التي جاءتنا هدية من الفاطر على يد التجارب لا نجد ما يمنعنا من الظن بأننا

مهما استعنا بالآلات نبقى في مشاهداتنا بعيدين عن كشف الاشياء كما هي وتبقى أشياء كثيرة خافية على أبصارنا وآلاتنا مهما بلغنا بها

فما أكرمك ياعيني عليّ! أنت أنت كنت سبب ارشادي إلى حقيقتي إذ لم تريها لانني عرفت بالتجربة أنك مسكينة عاجزة لا ترين كل شيء ولا ترين شيئا مما ترينه على وضعه وحقيقته فاضطررت أن أقيس وجودي على وجود غيري !.: لا جرم أن لي حقيقة مستترة عنك وراء وجودي الجسمي الذي تشاهدينه كما أن وراء النور حقائق مستترة ولا جرم أن حقيقتي هي سبب وجودي كما أن الحقائق المستترة وراء النور هي سبب وجوده

ان الحقيقة العظمى التي هي باطنة من وراء الاشياء كلها، وظاهرة عليها كلها . هي حقيقة واجب الوجود، حقيقة من لا بد لوجودنا من وجوده؛ ولا بد لتشكلنا وتنوعنا من فيض تخصيصه وجوده، هي حقيقة من له الحياة الازلية الابدية لان الحياة التي نعرفها عنه صدرت، وله العلم الازلي الابدي لان العلوم التي نعهدها من فضله أتت، وله الارادة الازلية الابدية لان الارادة التي نجدها من لدنه أهديت، وله القدرة التامة الشاملة لان القدرة من عنده نشأت . . هي حقيقة من لا مثال له في كمال وجوده؛ وعنه صدرت أمثلة الكمال في الوجودات الظاهرة . . هي حقيقة البارىء المصور الذي برأ حقيقة مثال كامل حي سميع بصير مريد وجعل حجابه هذا الهيكل البشري

أصبحت لا ارتاب في أن الحقيقة العظمى هي التي تهدينا بآثارها وبامداداتها الى كل شيء مما نعرفه؛ ولكن لشدة ظهورها الذي قديما دل العلماء. عا تخفى ؛ فاذ نطلب معرفة النفس تظهر آياتها العظمى: فسبحان الله

من عرف ربه فقد عرف نفسه ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه

عرفت الآن من أمر نفسي أو روحي أنها لا يعرف كنهها ولم يزدني جهلي بكنهها إلا إيمانا بحقيقتها الجليلة المستقلة عن الجسد ، لانني لم أعرف من أمر كل جزء من أجزاء الجسد إلا مشابهته لهذه الجمادات التي أمامي وليس فيما أمامي شيء يجمع فيه ماتجمعه هذه الروح . وقد حاولت كما يفعله بعضهم أن أنسب هذه الخواص الى المجموع المركب من هذه المواد على نظام خاص فلم يسلس له فكري بل جمح عنه كثيراً لتذكره النظام الشمسي وذهابه الى أنه انما قام بما يسمونه الجاذبية ولم تقم هي به . فما نفسنا أو روحنا الا جاذبية النوع وكهربائية الخصائص والمزايا ، وهي هي مؤلفة الهيا كل وناظمتها . لا بدع في ذلك فالكوائن كلها من أصل لا يرى ولم تنفصل عنه ، ولا يكون الاصل تابعاً للفرع ، ولا ضرورة لتغير الاصل اذا تغير الفرع . ولا يصعب فهم هذا على من عرف كيف يتجسد ما لا يرى فيصير مما يرى ، وكيف يتلطف ما يرى فيصير مما لا يرى . الصناعة بهذا ضمينة ، والتجربة فيه هادية أمينة ، ولا يصعب أيضا على من عرف آيات النفس التي تظهر في بعض الاشخاص لنتعلم بها ان لها شؤونا غريبة جدا فوق المعهود منها والمألوف من دخولها في قيد الحس ، سبحان الله كم لها من انطلاق منه يظهر معه أن لا حاجة لها بهذه الآلات العضلية والعظمية والعصبية

نحن شاهدنا مع هذا كثيرا ، وشاهد مثلنا خلق لا يحصون ، والباحثون المحققون شاهدوا أيضا او نقل اليهم ثقات كثيرون بمجموعهم يدفع عن نفوسهم الريب ، وما علمنا انهم وجدوا لهذا الامتياز الفائق اسبابا جلية ! غاية ماصنعوا انهم وضعوا لبعض هذه الامور اسماء وظن

القاصرون أن هذه الاسماء تحل الاشكال ، وتحكي حقيقة الحال :

وسمعنا سماعا لا يستطيع الريب معه البقاء أن أشخاصا يشفون أمراضا معضلة بغير علاج ولم يقل لنا حذاق الابدان في تعليل هذا الامر الا انه شفاه بالوهم فيا عجبا ماهو هذا الوهم الشافي ولماذا لا يشفى بالوهم كل شخص

حالة المنوم تنويما مغنطيسيا هي من الادلة الصريحة في هذا الباب على شدة غرابة أمر هذا الموجود الصغير الكبير واستعداده لخرق الحجب الكثيفة - وفقد القيود الحسية - وعمله الاعمال العظيمة - من غير حركة يبديها أو واسطة يأتيها :

هذا حديث نفسي وخلاصة ماظهر لي أن الروح خلق مستقل ذو ظهورات فائقة ، واحتجابات محيرة - هو أقسام كثيرة - نصيبنا منه عظيم ، وارتقاء نوعنا لولاه عديم ، هو الحي السميع البصير المريد المستعد للظهور والاجتنان - المصنوع آية كبرى دالة على جامع الاكوان ، وظهر لي أن خصائص الروح الشوق - ولو قلت إن الروح هو الخلق ذو الشوق لما وجدت هذا غريبا في تعريفها - ولكل روح شوق يناسبها ، وعلى نسبة شوقها تكون رتبتها وصفها في عالمها الذي هي منه ، وفي عالم المثال والعيان الذي دفعها اليه شوقها الى الظهور

***

كانت روح هذا السيد بعل سيدتنا « خديجة » من اعلى الارواح ، وكان شوقها ازكى شوق واقدسه ، كانت عظيمة الشوق الى رؤية فاطرها ولكن هل الفاطر عز وجل يرى ؟ لعلها حارت زمنا في هذا الامر ؟ ولعلها قالت لو كان يرى لكان محدودا وكيف يدخل في حد من برأ الحدود؟

ولعلها عادت الى زيادة التبصر فقالت هل الرؤية مخصوصة بهذه الباصرة؟ وهل يشترط أن يكون المرئي متشخصا؟ أليس القصد من الرؤية العلم؟ ألا يمكن العلم بالفاطر مع انه غير متشخص؟

هذا ما كانت تحوم حوله هذه الروح العلوية التي كان مظهرها و بيتها الصوري في بيت « خديجة » ومطافها ومطارها ملكوت الحق، ملكوت الوجود الاعلى

ولعلها يئست من أن تجد فيما حولها ما يروي اوارها من معرفة فاطرها الذي اشتد شوقها اليه بل لعلها غلب عليها ذلك الشوق حتى أصبحت زاهدة في كل رؤية وكل سمع ،لانها تريد أن ترى وتسمع الذي اليه طارت شوقا ،ولذلك رأينا « محمدا » صلى الله عليه وسلم قد حببت اليه الخلوة والانفراد ولا سيما اذ شارف الاربعين من سنيه، وكان لغار «حراء» الحظ من هذه الروح الحائمة على حبيبها وطيب شوقها

من ذا الذي يعلم غير الله ما كان يقوله هذا المنقطع في ذلك الغار؟ ولكن يصح لنا أن نظن بأنه كان يساقط الدموع ويناجي المقصود المطلوب بقوله : رباه ! رباه ! كيف الوصول الى حضراتك! كيف السبيل الى مشاهدات تجلياتك ؟ اليك أيها المولى من مزيد حبي: قيامي وقعودي، وركوعي وسجودي ، ومن مزيد شوقي: ذرف دموعي، وفرط ولوعي، رحماك رحماك ياربي ! كبد تذوب وعين تسيل ، وفكر يتدله، وأنت انت مطلوبي وانت أنت ذو الكرم والجود!

على هذا المثال كانت حاله ،وهذا هو العمل الروحي الذي شغل به

بالله(١)وقد فهم القريبوزمن فهم الروح مقدار فوائد هذه النجوى القدسية وأما البعيدون عن هذا الشوق فيعجبون وينكرون ، وليتهم يتذكرون محن الناس وتدلهاتهم بهذه المتغيرات من صور وأشكال لا تتوقف الحياة عليها، ولا يجدون الطمأنينة لديها ، هذه المحن والتدلهات أقضى بالعجب لعمر الحق لو كانوا يعقلون. وأما ابتعاد روح عن المحسوسات في سبيل الاقتراب من حضرة من لا تدركه الابصار فسعي وراء مبتغى جليل .

العمل الذي فيه لذة لا مضرة على الغير فيها لا ينكره عقل، ولأرباب الاعمال الروحية لذات لا يستبدلون بها كل لذات المفتونين بالمحسوسات فعسى أن يتذكر العقل المستقل هذا المعنى فلا يكبر عليه أن يفهم أقل الحكم في الاعمال الروحية وهي لذة أربابها وانتعاشهم وتفتح بصائرهم لرؤية المعالي كما هي فلا يحزنهم شيء بعد في نيلها ولا تقف هممهم أمام حزن في طريقها

كانت السيدة « خديجة » شديدة الفهم وعظيمة الثقة ببركات هذا العمل الروحي فساعدت عليه ولم تلم صاحبه ولا عتبته، كانت عظيمة الايمان ، بالقوة العظمى - والحقيقة الكبرى ، فلم تر بأسا بل لم تر إلا الخير بتوجه وجه زوجها الكريم تلقاء سوانح الامدادات الفائضة من لدن ذلك الملكوت الذي لا حد له . كانت قد عرفت أن هذا الغار في «حراء» الفارغ من كل مشتهى حسي كان حريا أن يكون مثابة لهذا الشبح الشريف الحامل قلباً قد فرغ من كل شيء غير الوله بالمعالي القدسية ، والشوق إلى الحضرات الربانية ، فكانت تبارك على هذا الغار الفارغ وتسأل الله أن يملأه معالي

---

(١) ويفهم من القرآن أنه كان يتفكر في ضلال الناس بالشرك والفساد في الارض ويطلب من الله الهداية إلى المخرج من ذلك (ووجدك ضالا فهدى)

وبركات وقد أجاب الله تعالى بكرمه سؤلها وكتب « حراء » في الصف الاول بين الاماكن التي تتوج بتمجيد الناس وتحياتهم ومحامدهم . وكم قد توجت قرائح الشعراء عن احتراماتهم وتكريماتهم لهذا الغار أو لهذا المطلع الذي فاق بدره البدور قال قائل منهم :

سلام عليك حراء الشهير   أمطلع ذاك الضياء العظيم
سلام فؤاد ذكور شكور   بقدر الذي قد صحبت عليم

**

لانت يتيمة عقد الوطن   فقيك أضاء السراج المنير
بذكراك يلقي الفؤاد السكن   فذكراك ذكرى عطاء كبير

الفصل السابع عشر

(بين روح وروح)

أو

(بدء الوحي)

في « حراء » حدثت الحادثة الاولى من التأريخ الجديد الذي سنرى فيه بعل السيدة « خديجة » فائقا فواقا عظيما مدهشا : وهذه الحادثة العظمى التي هي مبدأ هذا التأريخ هي أن روح محمد (صلى الله عليه وسلم) اجتمع هناك في « حراء » بروح غير بشري وأبلغه هذا الروح الغريب رسالة شأنها عظيم

نحن في الفصل السابق ذكرنا من أمر الروح مافيه كفاية ، ذكرنا فيه مالعل القاريء ينشرح به صدره الى القول بوجود موجودات ذات

حياة على أنواع شتى ولا يشترط في بعضها أن تكون لها أشباح كالأشباح البشرية . وهذا قد سبقنا البشر كلهم الى القول به ولم يشذ عنه الا قليل وهم كلهم قائلون ان بين الروح الذي هو انسان وبين الارواح الاخرى اتصالات ، فأنا كاتب هذه السطور لست بمبتدع خبرا ليس له مثال بذكر هـذه الحادثة التي قد يراها غريبة من يحبون التباعد عن الروحيات ، ومن يؤمنون بها أحيانا ويكفرون بها أحيانا من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون

هذه حادثة عظيمة في السيرة التي نحن آخذون بتحريرها ، ونحن مقتنعون بوقوعها ، ولا يدعونا الى استماع هواجس المنكر الا الحرص على القيام بحسن المرافقة . فان كان المنكر ينكر عالم الروح من حيث هو فالحق أن حيلتنا البيانية معه قليلة ، ولكني أظن أن محادثتنا اياه بهذه المسألة في الفصل السابق قد تجديه . وان كان ينكر العلاقة بين الروح الذي هو الانسان والأرواح الأخرى فليس لنا ما نتوسط به الى ابلاغه هـذا المشهد غير نفسه ، فليرجع اليها كثيراً وليدقق في حديثها جيدا . وان كان ينكر صـدق محمد (صلى الله عليه وسلم) في تحديثه بهذه الحادثة مع أنه لا ينكر وقوع مثلها لغيره فالخطب في مذاكرته سهل

كان «محمد» ﷺ صادقا شديد الحرص على الصدق واشتهر منذ حداثته بلقب « الامين » قد عرفنا صـدقه كما عرف الناس شجاعة أناس من الشجعان ، وكرم أفراد من الكرماء ، وعلم جماعة من العلماء ، وكما عرف بنو اسرائيل صدق الانسان موسى الذي كان قد سمع الكلام الالهي ، وظهرت له الارواح العلوية ، وكما عرف النصارى صدق الانسان عيسى

الذي كان روحا من الله ؛ وكما عرفوا صدق تلاميذه وأنصاره الذين حكوا حكايته وبثوا بشارته

هذا الصادق الامين رجع ذات يوم من «حراء» منتقع اللون مرتجف الصدر ، يعلوه اضطراب الوجل الحائر ، وخشوع المخبت الصابر ، فما وقع نظر السيدة « خديجة » عليه حتى عرفت أن أمراً عظيما قد ألم به . خفق لأول وهلة قلبها ، وساءلت بسرعة البرق نفسها : ماذا أصاب حبيبي ، ماخطف ذلك القلب الذي لا تزعزعه الرجال ، ولا تجزعه الاهوال ، مابال ذلك الصدر المبسوط تثنيه الرجفات ، وما بال ذلك الطرف القرير تكاد تبادره العبرات ، رباه ! رباه ماذا أصاب حبيبي ، قل لي أيها الحبيب ماذا أصابك ، حنانيك قل لي ! قل لي :

— دثروني دثروني

— لاصبر لي عن معرفة الامر الآن فقصه عليَّ

— بينا أنا في «حراء» اذ جاءني روح فقال لي اقرأ قلت له «ما أنا بقارىء» فأخذني وغطني غطة (*) وقال لي « اقرأ » قلت « ما أنا بقاريء » ثم غطني الثانية وقال لي اقرأ فقلت « ما أنا بقاريء » . قال لي : (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الاكرم * الذي علم بالقلم * علم الانسان مالم يعلم)

— ألم تسأله من أنت ، ومن جاء بك ، وماذا تريد مني ؟

— سمعته يقول أنا جبريل جئت أبلغك رسالة ربك

***

(*) ضمني بشدة وضغط

هذه هي الاولى من الكلمات التي سمعها محمد (صلى الله عليه وسلم) من ذلك الروح الذي ظهر له باسم جبريل وهو من النوع المسمى ملائكة والآن قد فتح لصاحب «حراء» بابان : باب حيرة جديدة وباب هدى فأما الحيرة فظاهرة يكاد يراها كل من سمع هذه الحادثة فان ظهور الارواح غير البشرية لافراد النوع الانساني ليس من المألوف . فاذا صادف أحد الافراد شيئا من هذا القبيل لا يقوى طبعه البشري لاول وهلة على تحمل مواجهته والانس به . كل واحد منا يعرف هذا من مفاجأة الامور التي لم تكن تخطر في باله مع أنها من الامور التي تقع كثيراً فكيف الحال بالامور التي وقوعها نادر الى حد أن بعض الناس لا يصدق بوقوعها

انه ليخيل الينا أن صاحب «حراء» قد دهش لما سمع صوت ذلك الروح يناديه «اقرأ» يخيل الينا أنه قال في نفسه : رباه ماهذا الذي أسمع ، رباه ليس هنا من بشر فهل يتكلم غير البشر ، رباه ماذا يراد بي ، انني أعلم أني في يقظة لا في منام - وانني اسمع كلاما لا ريب فيه - وانني أحس بضاغط يضغطني ولا عهد لي بمثل هذا من قبل !. رباه ان هذا أمر يدهش فكن اللهم عوني ، وخذ بيدي . وثبت فؤادي - وقوني على مواجهته اذا عاودني .

نعم انه ليخيل الينا أن المفاجأ بذلك الروح هكذا كان يتناجى في نفسه ويناجي ربه بمثل هذه الكلمات وهو ذاهب الى خديجة فلما لقيها قال « دثروني دثروني » واختصر لها الحديث اختصاراً

دثرته «خديجة» وجعل العرق يتصبب منه. وقد عاوده الروح بعد

ذلك . وقال له (يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر)

ان من يفاجأ بمثل هذا جدير بالحيرة وهذا ما أشرنا اليه هنا ولكن مع هذه المفاجأة قد أونس باسم ربه فكان هـذا الاسم الجليل حرياً ان يكون دواء شافيا من تلك الحيرة وكافيا أن يفتح باب الهدى والطمأنينة

الروح «جبريل» يقول له أنا من عند ربك، جئت أبلغك رسالته ، جئت ألقي عليك وحيا من عنده ،وفي هذا الوحي الذي جاءه به مفتاح لتلك المغالق التي اشرنا اليها آنفا التي كانت تقف أمامه دائما . . في هذا الوحي مبدأ ارشاد وتعريف له بربه خالق الانسان، في هذا الوحي اهابة بفكره لتناول معارف عليا ، وتعاليم عظمى ، في حقائق الوجود

كانت الحيرة تردفها الحيرة . وأما هذه الحيرة فان الهدى يردفها لان العناية الآلهية ظهرت أتم ظهور، والعطاء الرباني سلم جليا لتلك اليد التي كانت مرفوعة في «حراء» تلقاء السماء

وكان أول معراج عرج بصاحب هذه اليد عليه الى تلك الحضرات القدسية هو اعلامه علم اليقين بأرواح عالية تتكلم هي غير الارواح الانسانية الحالة في هـذه الصور البشرية وذلك بجعل واحد من هـذه الارواح واسطة بينه وبين مفيض الحياة والعلم والارادة

هذه عناية كبيرة جدا لم يرو التاريخ وقوع مثلها الا لقليلين: منهم النبي ابراهيم ،والنبي موسى ، والنبي عيسى (عليهم السلام)

يقول له الروح «جبريل» (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الانسان من علق) فهذا القول العربي الجليل يصور له من النشأة المادية في خلق

الانسان صورة يتجلى فيها عظيم قدرة الباريء المصور، وعظيم ضعف هذه الصورة البشرية لولا روح الله الممد لها

يقول له الروح «جبريل» (اقرأ وربك الا كرم * الذى علم بالقلم * علم الانسان ما لم يعلم) وهـذا القول المجيد يصور له من النشأة الروحية في كون الانسان صورة يدهش الالباب فيها عظيم صنع الله فى ترقية الانسان بواسطة قصبة لا يؤبه لها لدى النظر. نعم بواسطة قصبة نعني بها القلم كان الرقي العظيم العقلي لهذا الكائن الذي خصت العناية الازلية نوعه بمزيد خصائص

وغريب في الامر أن المواجه بهذا الخطاب لم يكن من ارباب اليراعة بل كان أميًا لا يعرف القراءة ولا الخط بالقلم فما معنى أن يكون أول وحي يوحى اليه هو الامر بالقراءة والتنويه بالقلم

لا بدع. لا بدع. ان معنى ذلك هو تكرم الله عز وجل على البشر باعطائهم آية أخرى يفقهون بها أنه قادر أن يعلم من لدنه بغير ماعرفوا من الوسائط من شاء ماشاء إذا شاء. وأن يجعل غير القاريء قارئا ولكن يقرئه بالروح صحفا ربانية قد أنزلها الله على قلوب البشر بأساليب شتى أجلها وأعلاها هذا الاسلوب

***

ما أجل هـذه العناية وما أجدر «خديجة» بالسرور الذي ليس فوقه بها ولكن هل عرفت هذا السر الرباني تماما؟ نعم كان قلبها القوى خليقا أن لا يفزع أمام هـذه الحادثة التي هي غريبة في ظاهرها بيد أنها كانت محتاجة أن تطرق تفسير هذا السر وهذا المظهر الجديد من ابوابه

الفصل الثامن عشر

عظم المنة باتساع المنة(*

كان محمد (صلى الله عليه وسلم) قوي القلب جدا تدل على ذلك سيرته كلها من أولها الى آخرها . ولكن مهما قوي قلب أمام الحوادث المعتاد وقوع أمثالها بين الناس فلا يدل ذلك على انه لا تأخذه روعة أمام صوت غير بشري يهيب به الى أمر غير حسي . لذلك لا ينبغي أن نستغرب الروعة التى أخذت لاول وهلة ذلك القلب القوي العظيم فانه دعي من لدن الحق بواسطة الروح الى وظيفة تنوء بحملها المنن ، ويجب بحسب حدودها قلب السنن

إي لعمر الحق لاغرابة في روعة تنقض الظهر ، اذا حدثت لمن نودي هذا النداء بهذا الامر ، وبديهي احتياج هذا المأمور الى شرح الصدر ، والتأييد ورفع القدر ، ولا بدع اذا ضمن له كل تأييد من أراد أن يكون قلبه محلا لتنزلات وحيه الأعلى

نعم ألمت الروعة بقلب صاحب « حراء » لما نزل عليه الروح بما نزل به عليه وقد صرح لخديجة بذلك وقال لها « لقد خشيت على نفسي» ولكن التأييد حافّ به ، والايناس صافّ من حوله ، وناهيك أن في منزله

*) المنة الاولى بكسر الميم وهي معروفة والثانية بضمها وهي القوة قوة النفس

الذي اليه يثوب روحا شريفا كأن الله قد أوجده خاصة لتأييده وشرح صدره بادىء بدء هو روح السيدة « خديجة »

لم تكن هذه السيدة أقوى منّة من بعلها الكريم ولكن هو واجهته روائع الجلال مواجهة . فأخذته بين حيرة وشوق وخشية تحجز عن القيام بالوظيفة . وأما هي فسمعت بالامر سماعا ، ووجدت للتفكر فيه مجالا ، ولا يناس الرفيق مقالا

ولو بدهت امرأة بما بدهت به هذه السيدة من هذا النبأ المعظم وكان ينقصها ماحلاها الله به من الفطنة وبعد الادراك وسلامة الفطرة وما أعطاها من قوة التمييز في وزن الامور ومعرفة مقاييسها لتراخت مفاصلها ووهت قوتها أمام هذا الحادث الغريب . ولكن العناية الازلية التي لها اليد في اظهار هذا المظهر الاعلى قد أتمت العمل من أوله الى آخره ونسقته على أحسن منوال فلا بدع بما نراه في هذه السيدة من الصفات التي تساعد على استقبال أمور عظيمة لانها خلقت لتكون زوجة لذلك الرجل الذي سيأتيه أعظم الامور ويأتي به

تفكرت « خديجة » في هذا الامر وأخذت تسائل نفسها بنفسها وللأمل ههنا وجه وللخوف وجه : فالأمل يقول لها ان الامين لصادق وان روحه لزكية قوية لاسلطان لروح الشر عليها والروح الذي جاءه انما بلغه باسم ربه أنه اصطفاه رسولا والله على هذا قدير ، وباختصاص من شاء بما شاء جدير ، وأي شيء يمنع رب العالمين اذا أراد أن يتكرم على هذا البيت بانزال وحيه فيه فيغدو بعد الآن مشرقا لاتضاهيه المشارق ؛

يفيض النور على القبائل والشعوب؛ انت اللهم على هذا قادر اذا أردت ولا مانع لما أعطيت : والوجل يقول لها ماهذه الحال التي أخذت، حبيب قلبي فراعته، اني لاخشى أن يكون أمراً جسمانيا بحتا كما قد يعرض للأفراد. اني لأخاف أن يصبح هدفا لرمي الاضداد . ولكن سرعان ماغلب الأمل على الوجل. والمنة على الضعف؛ ووشكان ماتبدت لها وجوه الادلة على أن ماأتى ملها الكريم هو بريد خير عظيم، ومقدمة فلاح عميم، وكانت أدلتها على ذلك عقلية، ونقلية تقدمت العقلية؛ منها على الثانية

الفصل التاسع عشر

(الأدلة العقلية)

لما قال « محمد » (صلى الله عليه وسلم) لخديجة « لقد خشيت على نفسي » قالت له « كلا والله مايخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق، وتصدق الحديث، وتؤدي الامانة »

ان هذا الكلام الذى صدر منها على الفور هو نتيجة معرفة سابقة، هو نتيجة تفكر جميل قد أعطى الثمرة سريعا،هذا الكلام الوجيز يؤلف استدلالا عقليا من أعظم الاستدلالات فانه قد أتى ساذجا نظيفا لاغبار عليه من التكلف ، ولا شيء منه بواقف أمام الذهن ، هو قياس باهر النتيجة ، مطوي بعض الحواشي ، ومن أبدع الاقيسة نظما، ومن أجلها وقعا ، بيد أن الافهام كدأبها في التفاوت ، وعلى سنتها في التخالف، لا

يستغني كثير منها عن تشريح هذا القياس لتطلع على قلبه وأعضائه واحدا واحدا . فحينئذ يلوح لها انطواء الافادات الغزيرة ، في هذه الكلمات الوجيزة ، وتعلم من قريب أن الحكمة بيد الله يؤتيها من يشاء

(١)

يخرج من كلام هذه السيدة أن النوع الانساني محل لعظائم تجليات رب الانواع كلها . ولذلك يحب كل مايؤدي الى تسامي هذا النوع ويخلق الاسباب لذلك ويأخذ بيدها لتتغلب على ما أظهره بحكمته التي لا نعلمها من أضدادها

(٢)

ويخرج من كلامها أن الله عز وجل مطلع على أعمالنا ومجاز عليها وأنه يحب منا أعمالا ويكره أخرى وأن الذي يحبه منا على حسب تفكرها هو الاستقامة ومساعدة بعضنا لبعض ولا سيما مساعدة الضعفاء

(٣)

ويخرج منه أن من يفعل الخير لا يأتيه الا الخير . والخير الذي نعبر عنه بهذا اللفظ قد جاء في عبارة السيدة بتفصيل أعمال كلها من باب مساعدة الانسان للانسان فهذه المساعدة في نظرها كل خير أو هي كل الخير فهل يكافيء الله فاعل الخير بغير الخير؟ ان هذا على حسب تفكرها لا يكون

(٤)

ونتيجة قياسها أو أقيستها أن هذه رسالة ربانية فيها الخير لا الضير ، وأن الله عز وجل سيتفضل بتأييد هذا المأمور في حمل هذه الامانة على ثقلها وصعوبة تأديتها لقوم ينكرونها ولا يعرفونها

الفصل العشرون

شرح حكمة السيدة خديجة

ان محيط جلال الله الذي ليس له حد ، ولا تبلغ سفن العبارات شيئاً من سواحل التعريف به حق التعريف . وانما هي لتستعين النفس على بث حبها له عز وجل وتمجيدها اياه وليزداد شوق النفوس الى الكمال وتعبدها لذلك الجلال ، لقد عزت صفات واجب الوجود عن أن ترسمها اللغات ، كما عزت ذاته عن أن تحدها الجهات ، وأن حقيقته لهي فوق المجاز والاستعارات

لكن الانسان خلق عظيم الشوق الى تصور ربه - وغير صبور عن الاشارة الى وصفه ، وليت شعري أنى يبلغ الواصفون صفة من كنه محتجب في خزائن الغيب الاعظم ؟

لقد نفد صبر الانسان في هذا الامر من قديم الازمان وأقدم على وصف ربه فلم يجد غير الاستعارة حيلة فوصفه بما يتصف به الانسان نفسه ولذلك وقع تناقض كثير في أوصاف الواصفين لأن رب العالمين غير حادث ولا تشبهه الحوادث تعالى عن ذلك علواً كبيرا

ولقد ظهر بين البشر رجال منهم أتتهم الارواح وكلمتهم من عند الله فأيد كلام الله بواسطة الروح ما درج عليه الناس من الاستعارة فأصبح هذا الامر عاما لافرق بين الناس فيه الا فيما اختلفت فيه عباراتهم .

والافكار المستقلة تؤدي الى قبول هذا الاسلوب أيضا لان التفاهم في هذه الابواب لايستغنى عنه ولا يمكن الا بالعبارة

***

إلى الله سبحانه يرجع كل شيء فهو أنشأ الانسان على هذا المثال ، وهو عنه ماقد عرفه إلى الآن ؛ وخلاصة ماعرفناه من ظواهر التكوين أن الباريء المصور عز وجل لما أراد أن يكون هذا الانسان مميزاً علما أظهر الأشياء أمامه مبنية على التضاد؛ وجعل تميز الاشياء بأضدادها ، وأودع فيه ضدين جعل عليهما مدار سيرته كلها في حياته هما الاستحسان وضده ؛ وجعل مع الاستحسان الشوق والحب؛ ومع ضده النفرة والبغض. واقتضى ناموس التضاد الذى عليه مدار تمييز الانسان أن تتخالف أفراد هذا النوع في الاستحسان وضده ؛فكثرت أسباب تخالفهم فنشأ بينهم الضدان المسمى أحدهما خيراً والآخر شراً . واحتاجوا إلى جواذب تجذب الخير ودوافع تدفع الشر فرجعت كل معارفهم إلى معرفة هذه الجواذب والدوافع . ومن نما منهم علمه بها وسما عمله على موجب هذا العلم سموه حكيما

وهل جائز أن يكون بعض أفراد الانسان حكيما والباريء غير حكيم؟ كلا ، ثم كلا . بل ليست حكمة الانسان إلا من الله، والله هو العليم الحكيم

نعم . بيد أننا نفقه معنى حكمة الانسان لاننا نميزها بضدها وليس لعلم الله وعمله وارادته جل جلاله من ضد

انظر تجدنا نعرف الاسرار في كل دقيقة من الدقائق التي يؤلف الانسان منها شكلا من الاشكال لان الانسان انما يصنع مايصنع للاحتياج والاستفادة وأما الذى أراد ظهور الاشياء بهذا التنوع فلم يرد هذا لحاجة أوجدوى تعود عليه . ثم انظر تجد أننا نسمي مايصنعه الانسان لا لفائدة عبثا ولا نسمي عمل المستغني عن الفائدة عبثا مع أننا لانرى فائدة في عمله لاله لاستغنائه وتقدسه ، ولا للمصنوع من معدن ونبات وحيوان وغيرها

فاذا أمعنت النظر يظهر لك أننا لا نستطيع أن نعلم ماهي حكمة الله في ظهور الاشياء على ماهي عليه ولكن نقص هذا العلم لم يمنعنا عن القول بأن له حكمة في كل شيء وتعلم من هذا وضوح عجز العبارة في كشف جذور هذه الحقائق مع عدم الاستغناء عنها

ثم إذا رجعنا النظر إلى علاقة هذه الظاهرات بالانسان يبدو لنا أمر يحمل على مزيد التفكر والتذكر ، ذلك أن كل شيء منها يفيد الانسان حكمة اذا تصدى لقراءته على صفحات الاعتبار ، ان الانسان ليرى اذا تأمل نظاما بديعا في هذه الظاهرات ويرى له نصيبا في كل شيء منها

فمن هذا الوجه قد يصح لنا القول بأن من جملة حكم الله تعالى في هذه الظاهرات تجلي آلائه وكرمه بجعل علاقة النفع والانتفاع بين هذه الانواع والصنوف التي لا تحصى وبين هذا الكائن الصغير الجرم

هذه العلاقة ظاهرة يكاد يراها كل من تأمل في استفادتنا معشر البشر من كل هذه الظاهرات . أما محبوا الحكمة فيعمقون نظارهم ويتلمسون الاسرار في تشكلاتها وتألفاتها على هذه الوجوه والاوضاع . ولو فرضنا أنها جاءت على غير هذه الوجوه لتوجهت أنظارهم الى استجلاء فوائدها ثمة أيضاً لأنها كلها من الله ، وما من الله لا يكون عبثا بل يستفيد منه الانسان حكمة أو شيئا آخر ، فكأن الانسان أكرم من كل هذه الظاهرات وكأنه هو المقصود بأن تنكشف له الحكم والاسرار الربانية

هذا هو الاساس الذى أقيمت عليه قواعد حكمة الانسان وهو مبدأ سيره لمعرفة حكمة الله الحكيم الاعلى جل جلاله وتقدست أسماؤه

***

حكمة الانسان في الحقيقة هدية ربانية يختص بها مرجع الاشياء من أراد اظهاره سليم الفطرة ، حاد الفكرة ، فهو يكون كثير الذكر ، قليل النسيان ، والكائنات كلها عبر ، وتعاليم لمن تذكر . وليست حكمة الانسان تلقينا يقدم له كل امريء ويؤتاه كل احد في كتاب يكتب ، او خطاب يخطب ، لكن مع أنه لم يكن أحد مستعداً أن ينال الحكمة نجد الحكمة ذات بركة شاملة تزور بيوت غير الحكماء ايضا فتملأها فوائد كثيرة من غير أن يشعر أربابها بحركتها وحركة حاملي لوائها

* * *

كانت السيدة « خديجة » ذات نصيب من هذه الهدية العليا الربانية هدية الحكمة ، وقد رأى القاريء آنفا شيئا من حكمتها وجميل تفكرها وتذكرها ونحن في هذا الشرح ذلك الاجمال ، ونزيد المقام حظا من ذلك الجمال:

(١) فهي رأت ان النوع الانساني محل لعظيم تجليات رب الانواع . وأنه سبحانه يحب كل مايؤدى الى تسامي هذا النوع . وحق مارأت فان اظهار هذا النوع على هذا المثال هو أوضح ضياء يرى به المدلج أن الله سبحانه أحب أن يعرف فاقتضت ارادته ظهور هذا النوع مستعدا للمعرفة وعظيم الشوق اليها . والانسان في ظهوره جسما وروحا وتفاوت أفراده بالارواح تفاوتا عظيما قد أصبح دون ريب من أكبر الآيات في هذا الباب على ذلك الشأن العظيم من المراد الالهي ، وأضحى مجمع أسرار وكنز حقائق لا يماري فيها الا من جعل النسيان بينهم وبين الملكوت الاعظم حجبا

ومن المشاهد أن الباريء عز وجل يخلق الاسباب المساعدة على ترقي هذا النوع ويأخذ بيدها لتتغلب على ما أظهره بحكمته التي لا نعلمها

من أضدادها . اننا قد شاهدنا ماجرى ويجرى من الدفاع والجدال بين جواذب الانسان الى حنادس الجهل ، وجواذبه الى مشارق العلم، فوجدنا الغلبة الثانية على الاولى وحسبك ان الانسان بعد ان كان كسائر الحيوان لايفقه غير حاجته الى عشب يصد به ألم جوعته - وماء يرد به ألم عطشته، أصبح يعرف الغوامض من أمور الكواكب ، ويحسب من حركاتها ما هو أقل من لمح البصر حتى تسنى له بذلك ان يعرف متى يكون الخسوف والكسوف ، دع عنك معرفته بما فوق الثرى وماتحته، ودع عنك توصله الى استخدام الروح السارى في هذه الظاهرات الدنيا نعني به الكهرباء ودع عنك استفادته من الارواح العليا : واتيانه بواسطتها بالانباء البعيدة والمحجوبة

(٢) ورأت السيدة «خديجة» أن البارىء عز وجل مطلع على اعمالنا ومجاز عليها وأنه يحب منا أعمالا ويكره أخرى . . . ومن تذكر ماحررناه في مقدمة هذا الفصل يعرف أن مثل هذا التعبير يقصد به تصوير معان من كمال الله تعالى فهو سبحانه محيط بالوجودات كلها وقد جعل لها سننا من جملتها أن جعل أفراد النوع الانساني محتاجين الى ارشاد بعضهم لبعض ومعاونة بعضهم لبعض ولا تنس أن الله سبحانه قضي بالتضاد ليميز به الانسان فما قرب من سننه محبوب عنده ، وما بعد عنها مكروه لديه . هيهات : هيهات أن نعرف مامعنى محبته سبحانه وكراهيته لانه سبحانه لاضد له ، ولكن هذا العجز لايثنينا عن الاعتقاد بأنه يحب ماينفعنا ويكره مايضرنا مما هو مقتضى حكمته ورحمته بحسب ايماننا وانما خلق الضار والمكروه مع النافع والمحبوب ليتم ناموس التضاد الذى قضت به حكمته

ومن أمعن النظر بكل ماسلف هنا يتبين له أن في مقدمة المحبوب لديه مساعدة بعضنا لبعض ولا سيما مساعدة القوي للضعيف. ومن يرزق هذا الروح لا يكون الا سليم الفطرة، طيب القلب، غير متهيج لنقص حظ - ولا متعال بزيادة نصيب، فلا يكون الا محبوبا تأتيه المساعدة من قبل عالم الغيب وعالم الحس والشهادة

(٣) على هذا ترى هذه السيدة أن الله سبحانه لا يكافيء فاعل الخير بغير الخير في هذه الحياة: وأهل الملل يقولون هذا القول باعتبار مايلقى المرء في الحياة الثانية التي انما تكون لنيل الجزاء، وأما في هذه الحياة فمنهم من يذهب هذا المذهب الذي ذكرناه ومنهم من يقول إن فاعل الخير يبتلى في هذه الحياة بالشرور (١)

ونحن لا ينبغي أن ننسى أن مذهب هذه السيدة مشوق لفعل الخير لان المجازاة عليه في هذه الحياة والحياة الاخرى مما يزيد محبيه حبا فيه. واليه أذهب، وبه أثق، ولا عبرة بمن يشذ عن قاعدة هذا المذهب ممن ظاهرهم الخير والله أعلم بسرائرهم

هذا بعض تفصيل لما جاء مجملا في حكمة السيدة «خديجة» ولم نسوغ الزيادة على هذا المقدار خشية تعب الرفيق القاريء ومنه يعلم رفيقنا أن هذه الاستدلالات العقلية كافية لمن كان له قلب سليم كقلب سيدتنا أن يعرف معرفة تدفع الريب أن الروح الذي وافى معدن الخير محمداً (صلى الله عليه وسلم) إن هو الا روح خير وسلام، وفلاح ونعمة واكرام، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

(١) الصواب أنه قد يبتلى بها، ولا يكون فعله للخير سبباً مباشرا لها

الفصل الحادي والعشرون

(الدليل النقلي)

اقتداء الناس بعضهم ببعض أمر قد ألفته طباعهم عظيم الالفة. وربما كان من سنخ غرائزهم ، ومن مادة تصورهم ، إذ رأيناه عريقا في مرافقة الاجيال ، والتنقل في الانسال ، وموغلا في الرسوخ والاستقرار ، والدوام والاستمرار ، لا يزحزحهم شيء عنه ، ولا يفصل بينهم وبينه فاصل

هذا الاقتداء نفع البشر كثيرا ، وأضر بهم كثيرا ، فاما نفعه اياهم فلأن الاكبر سنا ، والاكثر فهما ، والاشد قوة ، والاغزر تجربة ، يجعلون المقتدين بهم يبتدئون حيث انتهوا هم ، ويمهدون لهم مالا يستطيعون أن يمهدوا لانفسهم ، ولو بقي الطفل والغبي والضعيف والغِرّ خالين من طبيعة الاقتداء لراحت أكثر التجارب والاختراعات والتفكرات والاعمال العظيمة سدى ، ولولا الاقتداء لما تعددت الاعمال والصناعات ، ولا كثرت البدائع ، ولا ارتقى التمدن ، ولا نما العمران ، ولا سما النظام. وأما اضراره بهم فلانه ساق أحيانا الى الاقتداء بالجاهلين والمفسدين ، ووقف أحيانا بأقوام مع ماسن لهم اسلافهم وقفة الصخور ، وجعلهم يحرمون ما يأتي على أيدي الحكماء من الهدى متى خالف ماعرفوا من قبل ، وان اصبح ماعرفوه منكرا لدى أهل زملنهم أجمعين

البحث عن نفعه واضراره ، ووضع الموازين للدرجات فيه ، لا قرابة بينه وبين موضوعنا ، ولكن اتخاذ الناس بعض كلام الاخرين من جملة الادلة

هو الذي حملنا أن نقدم هذه الكلمات في وصف عراقته وبيان أن بعضه نافع كما وقع للسيدة «خديجة»

***

كان للسيدة «خديجة» ابن عم قد شبع من الاعوام ، وارتوى من حديث الانام ، قد تعلم العبرانية وقرأ بها الاسفار ، وعرف بها الاديان ، ورضي بدين ابن مريم (عليه السلام) دينا ، وهو « ورقة بن نوفل »

هذا الشيخ الجليل كان جديرا أن يكون اماما لخديجة تتخذ قوله حجة وهديه معتصما لان هناك وجوها كثيرة تدفع عن نفسها الريب بأن هذا الرجل أعلم منها بهذه الامور وانه لا يصدر عنه الا النصح لها. فهو بالدرجة الاولى ابن عمها بل بحسب السن مع القرابة هو في مقام ابيها، فلو أن ورقة غشاش مخادع لما كان منه الغش والخداع لبنت عمه فكيف وهو مستمسك اذ ذاك بدين ذلك الانسان المملوء قدسا الذي كان اكبر همه حث الناس على التحاب وتفع بعضهم لبعض، ونهيهم عن التشاحن وايذاء بعضهم لبعض . وهو مع قرابته وسنه والتعاليم التي تزكت بها نفسه كان في نظر خديجة سامي الهمة جدا

ذلك ما حملها على الاسراع اليه لتقص عليه الخبر وترجع في هذا الامر الى علمه وأخذت معها بعلها ليقص هو نفسه على سمعه ما رأى

كان ورقة بحسب ما قرأ وعرف مصدقا بأن ليس هذا الهيكل البشري الا مظهرا لشيء يحل فيه هذه المدة القصيرة باذن الله وهو الروح، وأن للروح ظهورات غريبة في بعض الهياكل ، وانه توجد أرواح من شأنها الاجتنان عن الحس والعيان تتمكن من الانسان من حيث لا يشعر، صنف منها يحب جذبه الى سبل التكمل ، وصنف منها يحب بقاءه في

حضيض البهيمية . يقال في العربية للاول ملائكة وللثاني شياطين

كان مصدقا بكل هذا ومؤمنا أيضا بان بعض الارواح الذين هم الملائكة يختصهم الفاطر المصور بمزيد خصائص ويجعلهم نواميس أي وسطاء الوحي الأعلى للذين يريد سبحانه أن تكون ظهورات الروح فيهم سامية جدا

كان قد قرأ الانبياء وعرف مجيء الارواح اليهم وعرف أنه يقوم أنبياء كذبة وأنبياء صادقون وأن لهؤلاء وهؤلاء علامات. فنحن لما سمعنا ذهاب خديجة الى هذا العالم المسيحي خطر ببالنا أنه لا يكون سهلا تصديقه بقدسية الروح الذي أتى محمدا (صلى الله عليه وسلم) لان يوحنا الرسولي يقول في رسالته الاولى «أيها الاحباء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الارواح هل هي من الله لان أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا الى العالم. بهذا تعرفون روح الله . كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله . وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله» ولكن الذي خطر ببالنا أن وقوعه صعب قد رأيناه أمراً واقعا فان ورقة بعد أن سأل بعل ابنة عمه بضع مسائل قال له هذا هو ناموس موسى أي الروح الذي جاءه والظاهر أنه لم يقل هذا القول ولم يصدق هذا التصديق الا بعد أن عمل الامتحان الذي أوصى به يوحنا الرسولي وظهرت له العلائم الدالة على أن الروح من الله على حسب ما تعلم من الكتب

نحن لا ندعي العلم بتفسير هذه الكلمات التي ليوحنا ولا طريقة الامتحان التي أشار بها ولكن نظن أن ذلك العالم القريب من ذلك العهد بالنسبة الى زماننا هذا كان لا يجهل هذا التفسير. وكذلك لا ندعي العلم بتفسير قول موسى لبني اسرائيل «ان نبيا مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من

اخوتكم ، ولا تفسير الاصحاح الثاني والاربعين من «أشعياء» ولكن يظهر لنا أن ورقة قد فهم من قول موسى هذا ومن اشعياء أنه سيكون نبي من العرب يكون مقامه حوالي سلم ذلك الجبل المعروف في البلاد العربية.

وهذا نص ما في أشعيا :

« ١ هوذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرت به نفسي وضعت روحي عليه فيخرج الحق للامم ٢ لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته ٣ قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يطفيء . الى الامان يخرج الحق ٤ لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الارض وتنتظر الجزائر شريعته ٥ هكذا يقول الرب خالق السموات وناشرها - باسط الارض ونتائجها ، معطي الشعب عليها نسمة والساكنين فيها روحا ٦ أنا الرب قد دعوتك بالبر - فأمسك بيدك ، وأحفظك وأجعلك عهداً للشعب ونورا للامم ٧ لتفتح عيون العمي - لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة ٨ أنا الرب هذا اسمي ومجدي - لا أعطيه لآخر - ولا تسبيحي للمنحوتات ٩ هوذا الأوليات قد أتت - والحديثات أنا مخبر بها ، قبل أن تنبت أعلمكم بها ١٠ غنوا للرب أغنية جديدة - تسبيحه من أقصى الارض - أيها المنحدرون في البحر وملؤه(؟) والجزائر وسكانها ١١ لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنها قيدار . لتترنم سكان سلع من رءوس الجبال ليهتفوا ١٢ ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر »

***

قد قلت وأعيد قولي انني لا أدعي العلم بتفسير هذه الكتب ولكني لما رأيت ورقة قال لزوج بنت عمه هذا هو ناموس موسى بحثت عن منشأ

قوله هذا فوجدت فيما ذكرت آنفا من قول موسى واشعيا مايشبه أن يكون مأخذاً فمن أراد أن يقول لي لا يفهم من قول موسى وأشعيا مافهمت لا يجدني آسفا على عدم اصابة ظني بخصوص ماحمل ورقة بن نوفل على قوله هذا فانه يجوز أن يكون قد عرف ذلك بغير ماظننته . ولست في هذا المقام بذي حجاج ومناظرة إن أنا ههنا الا كاتب سيرة أجتهد باستقصاء فروع حوادثها و تفسيرها على قدر فهمي ومبلغ ماوصلت اليه من النقول

وههنا مسألة جليلة لا نستطيع مفارقة هذا المقام من غير أن نوضحها ونسهل فهمها على القاريء وهي أن الارواح قد تعلم بعض الاشياء قبل وقوعها اذا كشف الله تعالى لها عنها بواسطة النواميس أو واسطة غيرها

هذا المعنى كان بنو إسرائيل يقولون به كما كان كثير من الامم الاخرى تذهب اليه وقد جاءت كتبهم حاملة سلسلة من أخبار هؤلاء البشر الذين كان الروح الالهي ينزل عليهم فينبئهم بما سيكون وتبتديء هذه السلسلة المهمة في كتبهم بحديث نوح الذي أنبيء فأنبأ بأنه سيكون طوفان ويموت كل من على وجه الارض وهدي الى صنع الفلك فصار الطوفان ونجا هو وأولاده ونساؤهم وتناسلوا بعد الطوفان ثم تفرقوا ثم اصطفى الله من هذه الانسال ابراهيم (*) وكان ينزل عليه روحا من عنده وشاخ ابراهيم وزوجته سارة من غير أن يصير لهما نسل ولكن حبلت منه أخيرا هاجر جارية زوجته ونزل عليها الروح وقال لها سيكثر نسلك فلا يعد من الكثرة فولدت له إسماعيل ثم انبيء أن زوجته سارة ستحبل وتلد بعد هذه الشيخوخة

---

*) ابراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح (كذا في سفر التكوين)

وطول هذا العقم فولدت له اسحاق، وانبىء أن نسل اسحاق سيكون كثيراً أيضا . وغضبت سارة على هاجر فطردتها وغلامها فنزل على هاجر الروح وقال لها لا تخافي لأن الله قد سمع صوت الغلام وسيجعله أمة عظيمة وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية برية فاران التي قال عنها موسى ان الله سبحانه تلألأ فيها

وتأخذ كتب بني اسرائيل بعد ذلك بسرد أخبار من تناسل من اسحاق بن ابراهيم وأما أخبار من تناسل من أخيه اسماعيل فلا تذكرها فابن اسحاق يعقوب وهو اسرائيل كان الروح ينزل عليه ، ويوسف بن يعقوب كان الروح يجيء اليه

ويوسف هو سبب مجيء بيت يعقوب الى مصر وهناك تناسلوا وكثروا حتى ولد فيهم موسى صاحب الشريعة الشهيرة . هذا أيضاً كان ينبأ وينزل عليه الروح وهذا قال لقومه « ان نبيا مثلي سيقيم لكم الرب الهكم من أخوتكم »

وأسس موسى لبني اسرائيل ملكا على الوحي الروحي وخلفه بعد موته تلميذه يوشع بن نون وبعد موت يوشع بدأ الفساد والضعف يحل بهم ثم انتشلهم داود وسليمان وتعاظم الملك في أيام سليمان ثم طرأت عليه بعده الطوارىء حتى زال . ولم يخل زمان من أزمنة ملوكهم وبعدها من نبي أو عدة أنبياء حتى نزل الروح أخيراً على مريم أم عيسى وبشرها بانه يكون لها ولد من غير أن يمسها بشر . وقد ولدت مريم عيسى على هذه الصورة التي بشرت بها وصار نبيا أيضا ولكن قومه كذبوه ولم يصدقه إلا قليل. وقد كذبوا من قبله أكثر الانبياء الذين كانوا ينذرونهم زوال الملك اذا ظلوا على الفساد

أنا لا أعرف لماذا يكذب بعض الناس بأشياء هم مصدقون بمثلها ، أو يصدقون بأشياء هم مكذبون بمثلها . هذا أمر وقع كثيراً ويقع دائماً أمام أعيننا وأسماعنا فهل التصديق والتكذيب بحسب وزن الاشخاص ، وماهو الميزان في الاشخاص ؟ أم بحسب وزن العقل وماهو سبيل العقل في التصديق والتكذيب بمثل هذا ؟

أنا أرى أن من آمن بسعة قدرة الله ، وبعجائب صنع الله ، ونفذت بصيرته لرؤية آثار روح الله ، وآمن بمجيء ناموس الله لعبده موسى ، لا ينبغي له أن ينكر قدرة الله في إخراج عيسى من مريم بغير واسطة بعل . ولا يجدر به أن يكذب نزول روح الله عليه كما نزل على أخيه موسى . ومن آمن بعجائب موسى وعيسى ابني اسحاق وبنزول روح الله عليهما لا ينبغي له أن يستبعد نزول هذا الروح على أخ لهما من بني اسماعيل

هذا أقوله للذين صدقوا بما هنالك من العجائب والغرائب الموسوية والعيسوية ، واما الذين لا يصدقون بهذي ولا تلك ، ولا يحكمون إلا الحس والعقل ، فهؤلاء أمضي بهم إلى التجارب والمشاهدات وأنا واثق أننا لا نعدم في خزائنها كثيراً مما يؤيد أن بعض البشر يخبرون عن بعض الحوادث قبل وقوعها

فان قال لي هؤلاء نعم قد يوجد أناس على هذا النحو ولكن ليس هذا سبب إخبار من روح كما تقولون ، قلت لهم إذا توافقنا في ثبوت الاصل فلا ضير علينا بعد ذلك بالاختلاف في الاسباب وأسمائها

وإن قالوا لي ما الفرق بين هؤلاء الذين قد نراهم في أزمنتنا هذه من هذا القبيل وبين من تحدثوننا عنهم ؟ قلت لهم إن هذا الفرق ظاهر لأن الاختصاص كله من الله فهو يعطي انسانا معرفة بعض الوقائع الآتية

ويجعله شارعا وقائد أمم ومؤيدا بتأييد عظيم لا تحيط به العبارة ويعطي انسانا آخر مثالا صغيرا من هذه المعرفة من غير أن يجعله شارعا وقائد أمم ومؤيدا بتأييد عظيم ، فالاول يقول أنا نبي أو أنا رسول ويظهر الله صدقه فيما يقول ، والثاني لا يستطيع أن يقول هذا وان قاله لا يظهر قوله حقا . فهل ينكر هذا الفرق الكبير ذو بصيرة لا يعدوها الاخلاص الى الله والادب مع مجالي أمره ، ومظاهر سره ؟

لقد كان ورقة على ماظهر لنا شديد الاخلاص متوغلا في علم الروح ومعرفة النواميس الالهية وأخبارها ، وكان على نور فراسة من ربه وسعة استطلاع ، فلما سمع هذا النبأ الجديد تفرس بصاحبه وتذكر ما نقل عن الانبياء وأصحاب النواميس من قبل ، وتذكر قول موسى لقومه بني إسحاق « سيقيم الله نبيا مثلي من اخوتكم » وما اخوتهم إلا بنو اسماعيل فقال له هذا هو الناموس الذي نزل على موسى

ثم تذكر ايذاء الناس للانبياء مع قول اشعيا « لترفع البرية صوتها ، الديار التي سكنها قيدار » وقيدار هو ابن اسماعيل . وقوله « لتترنم سكان سالع » وسالع او سلع جبل على مقربة من « يثرب » من أشهر جبال العربية فلاح له أن قريشا ستضطر هذا النبي الى مفارقة بلده « مكة » فقال له « ليتني فيها جذعا — أي شابا — اذ يخرجك قومك »

وبعد برهة قليلة توفي ورقة . أما « خديجة » فاستمسكت بكلام هذا الرجل أيما استمساك وأضافت علومه الى ماقد عرفته هي بدلالة عقلها وتجربتها فأصبح إيمانها بنبوة بعلها ورسالته الى الناس اثبت من الرواسي

الفصل الثاني والعشرون

(الايمان والآيات وخوارق العادات)

قال بعض الناس في تلك الايام لا عجب اذا آمنت «خديجة» ببعلها فان رابطة الزوجية تستدعي مثل ذلك ولكن ذا القدرة العظيمة قد أتى هؤلاء القائلين بما يعارض مزاعمهم اذ طفق بعض من سمع هذا النبأ يؤمن به ولم يبق المصدق به « خديجة » وحدها فاضطروا أن يخترعوا أسبابا أخرى للايمان به

حرب فكرية قامت أمام هذا النبأ الجديد عند شيوعه ، ارتجت له مكة وما حولها ، وانقسمت الافكار ، وتباينت الانظار ، وفي مثل هذه المواقف يعرف الراجحون بحسن الفطرة ، وقوة الفطنة، اذ يكونون من السابقين في رؤية الدقائق ، والوصول الى الحقائق

قال نفر منهم :

« لقد عرفنا محمداً طول هذه السنين فما عرفنا الكذب صاحبا له ، ولا عرفناه صاحبا للخداع ، وقد قام اليوم يخبرنا بأمر وقع له ليس هو بدعا من الامور ، ولا هو بضارنا شيئا . أتانا يخبرنا بامر يشبه ما نسمعه من أمر موسى نبي بني اسرائيل ولم يكن أمر موسى الا نافعا لقومه فلعل الله سبحانه يريد أن يهدي الينا نفعا بواسطة هذا الرجل الصادق الامين منا »

قالوا :

« يقول صاحبنا إن روحا أتاه وأوحى اليه ما أوحى ، ولا شيء من

هذا بعيد عن العقل اذا تأدب العقل ووقف أمام بحر القدرة الازلية الابدية وقفة العارف أن هذا بحر لا حدّ له. ويقول انه أمر بتبليغ الناس هذا الوحي وما سيتلوه »

قالوا :

« ان هذه الدعوى عظيمة فان كان ما ادعاه حقا كان من العار العظيم والضرر الكبير أن نرد هدية ربنا عز وجل الذي اهدى الينا العقل من قبل وهو يعزز اليوم تلك الهدية بهدية أخرى ربما كانت من نوعها، وربما كانت من نوع أعلى، وهل يرد حامل العقل مثل هذه الهدية بعد أن يذيقه العقل طعم الرشد والمعرفة ويأتيه بروائح ما يهب الفاطر جل وعلا من صنوف المعارف . وان كان ما ادعاه غير حق فان حبله سيكون قصيراً لان لدينا عقولا ولا يضرنا حينئذ ظهور أمره »

وقال نفر :

« لماذا يدعي الصادق الامين هذه الدعوى ان لم تكن صحيحة؟ هل فقد عقله؟ كلا فانا لا نزال نرى صحته واعتداله على أتمهما، هل تغيرت أخلاقه؟ كلا فان من الاخلاق ما يرسخ مع كثرة الاعوام وقل ان يثيض الصادق مائنا . كلا بل الامر جد ، والدعوى صدق ، وان لهذا الامر لناصراً من قوة ساقته بعد أن عاش أربعين سنة ـ الى الاتيان بهذا الامر الغريب الصعب عليه ، وان الايمان بقدرة الله تعالى ليدعونا الى اجابة هذا الداعي من لدنه ، وان الاخلاص ليدفعنا الى اعلاء الكلمة التي تنزلت الينا فضلا من ربنا ورحمة ، إنا به مؤمنون ! »

كان في مقدمة هذا النفر أبو بكر ذلك الرجل الذي لم يعرف الى ذلك الوقت بعيب عند قومه وليت شعري لماذا تجول الفنون وتحوم في تلمس الاسباب لايمان أمثال هؤلاء الافاضل مع اتفاق العقلاء على أن الذي رسمنا صورته من تفكراتهم هو المطابق لحكمة المتدلين

القائل ان «خديجة» انما آمنت بعلها لانه بعلها هو في سعة من ظنه هذا اذا شاء .ولكن بما مهدنا له من المثال بايمان أبي بكر نتمنى أن يكون انتفع بمعرفة أن طريقة ايمان «خديجة» كانت أعلى مما يظن

ان الذي آمن به أبو بكر ثم مئات ثم ألوف غيره لا يجوز للعاقل المنصف ان يحرم زوجته العاقلة من شرف الطريقة التي آمن بها هؤلاء الافراد ثم الجماعات

ان ظنون الناس تكون على حسب اخلاقهم وطباعهم وتصوراتهم فالذين يصرون على ادعاء أن السيدة «خديجة» لم تؤمن بهذا الروح الجديد الالان صاحبه هو بعلها هم إما جامدون في معرفة الاخلاق البشرية على شيء يستعيذ العاقل بالله من تفاهته وهو القسم الرديء منها ، وإما هم مجبولون على العناد واما هم مستعظمون لتصديق الانسان بالامور العظيمة من غير أدلة وآيات

نحن لا نسوغ لانفسنا أن نعيب أحدا ممن كان حظهم قليلا من علم اخلاق الناس ولا ندعي أنا نستطيع بالكلمات القليلة التي نقولها الآن مساعدة واذن من الصدد أن نودع في أفكارهم علما جديدا واسعا ولكنا نستطيع أن نذكرهم بان أخلاق الافراد ليست على شاكلة واحدة، بل منها ما هو في أسفل السفل ومنها ما هو في أعلى العلى ،ومن الناس من يغلب عليهم من الصدق والاخلاص ما يملك قلوبهم ويجعلها بعيدة عن التصنع

والرياء ، وعن الارتياب بالامور التي ليست غريبة عن محيط القدرة والحكمة والعناية الازليات اذا حدث بها المعروفون عندهم بالصدق والامانة ، ويجعلها قريبة من كل مافيه تمجيد اسم الفاطر جل وعلا وتعظيم مظاهر أمره وسره . وبعد هذه التذكرة نستطيع أن نقول لهم ان سيدتنا هذه كانت من أهل هذا الخلق الجليل كما تشهد سيرتها . ومتى تزحزح هؤلاء عن مركزهم في علم الاخلاق سهل عليهم أن يشتركوا معنا في معرفة انه ليس تحكوما على « خديجة » بالحرمان من الايمان الصحيح المبني على أسباب صحيحة لا على كونه بعلها

وأما المجبولون على العناد ، والغرور والاعجاب ، فلا نتعبهم بسماع أقوالنا اذ ربما أتت ثقيلة عليهم ، ولا نتعب انفسنا بمخاطبتهم اذ قد تأتي علينا ثقيلة . فلهم دينهم فيما توقفهم فيه جبلتهم ولي ديني فيما يمشي معه قلبي

وبقيت لي كلمة مع الذي يستعظم تصديق الانسان بالامور العظيمة من غير أدلة وآيات كثيرة . إن هذا معذور في نظري والتفاهم بيني وبينه سهل لاني لاأطلب ان يترك مابيده من النظريات بل أمشي معه في الحديث وهي في يده فنبلغ معه غاية حسنة تصلح ان تكون ملتقى لنا مهما تشعبت حولها آراء اخرى لكل واحد منا

أنا أقول معك ياصاحبي ان الذي يطالبه غيره بالتصديق له أن يطالب هو بالادلة والآيات ، ولكن اذا سمعت بمصدق ولم تسمع قصة طلبه للدليل والآية فلا تحكم بأنه آمن من غير دليل وآية الا اذا كنت تعرفه من قريب وتعرف أن بضاعته كلها تقليد الآباء والمعلمين

أنت تعرف أن أبا بكر وامثاله ممن صدقوا محمدا (صلى الله عليه وسلم)

لم يكن لهم آباء سبقوهم في تصديقه ، ولا معلمون حملوهم على تأييده ، وتعرف أنهم كان لهم حلوم راقية رائقة ، وألباب زكية فائقة ، فهل تظن أنهم صدقوا بغير آيات بينات ، وأدلة ساطعات ؟

المشارب في الاستدلال مختلفة وأخشى ان يكون مشربك فيه كشرب الذين لا يعدون الآية الا الامر الخارق للعادة واذا رأيت أن لا أودع هذا المقام من غير أن أحادثك بالآيات والخوارق بعد أن أسلفت طريقة « خديجة » على النحوين لتعلم كيف يمكن أن يكون ايمان كل مؤمن بمحمد (عليه الصلاة والسلام)

اذا وقع شيء خارق للعادة لا يستطيع أحد حينئذ أن ينكر انه آية عظمى ولكن ماهي العادة وهل يمكن أن تخرق (أي تخالف) وهل وقع شيء من هذا ؟

يعنون بالعادة عادة الاشياء وطبيعتها ويعبر بعضهم عنها بسنة الله تعالى في الكوائن . والذين بحثوا في امكان خرق العادة لم يفرقوا بين شيء وشيء بل جعلوا الكلام في هذا الموضوع على اطلاقه ومن هنا اشتد خلافهم . والذاهبون الى وقوع الخوارق لم يذكروا في الامثلة التي أوردوها من صور هذه الخوارق الا شيئا زهيدا جدا لا يصلح ان يلتفت اليه خصومهم فضلا عن أن تكون به قناعتهم

ان الله عز وجل سننا في كل موجود ، أو نقول ان لكل موجود عادة وطبيعة ، والشمس مثلا من جملة الموجودات فهل يقول الذين يعتصمون بالخوارق يمكن أن تصير هذه الشمس برغوثا وتبقى هذه الارض على حالها ويظل الناس فيها ناسا يبصر بعضهم بعضا بغير نور ويحيون هذه الحياة عينها متمتعين بحدائق وفواكه ، ولحوم وشحوم ، ومياه جارية ، وأزهار

زاهية وصيف وشتاء وربيع وخريف . . . الى آخره . . . الى آخره ؟ ؟

أنا لا أعرف ماذا يقولون ولكني مع إعاني كإعانهم أو أكثر بعظيم قدرة الله تعالى يجدونني اذا قالوا في هذه المسألة « نعم » مفارقا لهم وقائلا اذا تغيرت سنة الله تعالى في الشمس فصارت هي برغوثا تتغير سنته في أيضاً فأصير أنا غير إنسان وغير باحث عن الخوارق

الذكي يفهم من هذا المثال أن بحث الخوارق المدون في كتب جميع الملل لا يقف أمام نفخة من روح الله الحكيم اذا أراد عز وجل اعلان الغيرة على حكمته وسننه، ويفهم أيضاً أن الدين الذي هو من أكبر هدايا العناية الازلية لا يتوقف عليها إذ لو توقف عليها وكان لا بد في ظهور صدق المأمور بتبليغه من ظهور خارقة لما تيسر تصديق أحد لأن كل واحد حينئذ يخترع فيقترح صورة من الخوارق لسنن الله وناظم الكون سبحانه لم يشأ الى الآن نثره على ما يهواه المقترحون

الاقتراحات لا حد لها ولا عد ولا نظام هذا يقترح مثلا أن تصير الشمس برغوثا ، وآخر يقترح أن يصير المشتري عصفوراً ، وآخر يقترح أن يكون المريخ (طرطوراً) وآخر يقترح أن يصير القمر قربا ، وآخر يقترح أن يكون عطارد عطاراً ، وآخر يقترح أن تكون الزهرة زهرة لا تذبل أبداً ، وآخر يقترح أن ينضب البحر كله وتظل الانهار جارية ، وآخر يقترح أن يصير البحر كله براً أو البر كله بحراً والناس كلهم سمكات مؤمنات مصليات صائمات، وآخر يقترح أن يكون التراب كله ذهبا ، وتنبت عليه أشجار التفاح والليمون، والاعناب والزيتون ، وآخر يقترح أن يصير الوقت كله ليلا وتحبس الشمس في حجرة من حجرات الملوك

وآخر يقترح أن يصير الوقت كله نهارا ويذهب النوم الى الشجرات الدائمة اليقظة . . . الى آخره . . . الى آخره . . .

نعم إن مبدع منظومات الكون لم يشأ إلى الآن نثرها ولا نستطيع أن نقول انه ينثرها على حسب الاقتراحات لتأييد الرسل فما معنى مباحثاتنا معشر البشر بانه هل يستطيع ذلك أم لا يستطيع بعد إيماننا بعدم تحدد قدرته وبعد سماعنا وحيه يرشدنا بهذا الكلام العالي (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا)

بعد تقرير هذا أقول إن البشر لا يستطيعون أن يعرفوا كل سنن لله تعالى أو كل عادات الاشياء وطبائعها بل لا يستطيعون أن يعرفوا جميع اسرار كائن من الكائنات وجميع طبائعه بالتمام ثم هم لا يعرفون أيضا مقدار عنايته عز وجل بالانسان وانه مازال يمده بصنوف الهدايات، وأنه قد يشاء اعلان آية له لاظهار عنايته به فيريه شيئا مثلا على خلاف ما تعلمه من عادات بعض الاشياء التي لا يترتب على تخلف المعروف من عاداتها نثر المنظومات ومن أمثلة ذلك أن النار شأنها الاحراق وقد تقتضي سنته تعالى لاعلاء معارف الانسان وهدايته أن يريه النار غير محرقة لسبب تتعلق القدرة باخفائه

ان مثل هذا يقع ونعده من جملة سنن الله تعالى لان من جملة سننه ابداع هذا الانسان واطلاعه على واسع القدرة وبديع الصنعة واحتجاب الحكمة ، واختصاص العناية

ومن هذا التفصيل يتبين للقارىء أنا مؤيدون للآيات لا منكرون لها . وقصارى مانقول ان الدين لا يتوقف على الخوارق بقدر ما يقترح المقترحون ، ويظن الظانون ، ويخترع المخترعون ، وانما يؤيده الله تعالى بآيات تنشرح لها البصائر المستعدة ، ولا نقول إن هذه الآيات فيها

تحويل لسنة الله تعالى أو عادة الاشياء وطبائعها اذ لا تبديل لسنته سبحانه وانما فيها معونة ربانية نعرفها بآثارها

وربما كرهنا التعبير بالخوارق الذي اصطلح عليه المدونون وان كانت المناقشة على الالفاظ بغيضة الينا وبعيدة عن رأينا . ونحب التعبير بالآيات (كما عبر القرآن الحكيم) وبالله ما أكثر الآيات؛ على أن ما أتى به هذا المختار هو فضل رباني وأمر روحاني

لقد أنبته الله نباتا حسنا ، وشمله بالعناية منذ كان في الصبا ثم الشباب، وهو غير شائن ذلك الاهاب، حتى دخل الكهولة وتاق الى التكمل، وفي هذه السن بدأه بتحبيب العزلة وتفريغ الفكر من الصور الفواني ليشرق فيه الجلال الذي لا يفنى، ثم أعلن لروحه روحا من لدنه كما منح هذا من قبله رجالا كثيرين من المصطفين كابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى . ومن الآيات أن هذا الوحي صالح مصلح لنا ولم نجده طلب منا أن نعبده من دون الله وإنما قال لنا أنا عبد الله جئتكم ببلاغ من عنده انه وحده له الحكم ، وانه وحده اليه المرجع والمآب ، ولو قال لنا أنا الحكم لوجدنا مقترحين عليه أن يجعلنا خالدين ، واذاً لوجدناه عاجزاً

الحمد لله لقد جاءنا هذا الرسول بآيات كثيرة لا نستطيع عدها : جاءنا بالعلوم وهو أمي ، وجمع كلمة الشعوب وهو وحيد ، ورفع الله له من الذكر مالم يرفع لمثله ، وجعل هديه باقيا ، وصوته عاليا ، وروح تأييده ساريا، ولذا ليس اليوم بنا من تعجب حين نسمع ايمان أقرب الناس منه واعرفهم به بل نحن بخديجة وأبي بكر مقتدون ، ولربنا على هذه العنايات والآيات شاكرون ، وبوحي الله لهذا المصطفى مؤمنون

الفصل الثالث و العشرون

﴿ اعلان الدعوة ، واحتمال الاذى ، والثبات ﴾

لم تقف فضائل السيدة « خديجة » عند ماذ كرناه الى الا ن من سيرتها بل هي كالينابيع الثرور لاتغيض . والآ ن يشرف القارىء معنا على مجلى من أعظم المجالي لفضائل هذه السيدة الجليلة . جاء الآ ن دور الثبات في سبيل الحق ، وهذا الثبات لانجده في كل عصر الا في صحائف أفراد ندرتهم بين بني آدم أعظم من ندرة الياقوت بين الحجارة ، وكثرة فوائدهم أعظم من قطرات الغيث

لقد مر على بني آدم ألوف من الاعوام وفي كل عصر وجدمنهم ألوف الالوف ومن كل هذا العدد العظيم لانعرف مائة امرأة ثبتن في سبيل الحق مع شدة المعارضة ثبات « خديجة » أما ثبات بعلها الكريم فلاينبغي أن نقيس به بعد ماقدمناه ثبات أحد ، فانا قد وصلنا في الفصول السابقة الى بيان أنه مؤيد أعظم تأييد ، وأنه سمع الوحي الالهي آمراً اياه أن يقوم بأعباء الرسالة والتبليغ ، فأصبح الفرق بينه وبين غيره عظيما جداً منذ أتاه هذا الوحي . وعندنا معشر المؤمنين به أنه هو المختار الاعظم ، والمصطفى الاكبر ، فلذلك لانرى ثباته في سبيل الحق يعادله أو يماس به ثبات

ظل هذا المختار ثلاث سنين يدعو سراً ثم أمر أن يجهر بالامر ، فلم يجد الى جانبه زوجة تثبط وتخوف أو يضعف قلبها فتؤثر الراحة وطمأنينة البيت على النصب واحتمال الاذى بل وجد قرينة صالحة القلب للوقوف

معه بالصبر والسكينة أمام المعارضين والمعارضات وما أشد ما كان أمام هذا الداعي الى غير ماعرف القوم: وما أحوج هذه الحالة الى قلوب كلما كبر المعاندون كيدا تقول « الله أكبر » !

الله أكبر ، كان المعاندون افرادا وجماعات قد امتلكت الانفة والعزة نفوسهم ، واجتذبت قلوبهم ، وامتصت من أفئدتهم النداوة فأصبحت نسمات الهدى تزعجها ، وحرارة الانذار تكاد تحرقها

قريش وما قريش ؟ ! قبيلة ترى لنفسها السبق بكل فضيلة، والشرف على كل فصيلة ، لها أنوف شامخة كانها تطاول السماء ، وأعناق متلعة كانها تتصيد كل علياء ، تماد كل قوم بالنجباء فتكثرهم، وتفاخر من تشاء بالعظماء فتفخرهم ، مثلها بين القبائل كالشمس مكانة ، وكالروضة نضرة وعبيرا

هذه القبيلة التي حالها ماوصفنا من قوة الشكيمة وشدة الاباء ومزيد التعالي كانت قد أصيبت من الاقتداء بعضرته اذ كانت بعض العقائد التي صادفتها في موردها ومصدرها في البلاد المجاورة قد التصقت بعقولها حتى أصبحت ترى التصدي لاقتلاعها منها اعتداء على حقوقها، وانتهاكا لحرمتها

هذه القبيلة كان لها من نور الذكاء مايبهر الناظرين ولكن قد تراكمت على أفكارها سحائب من آثار التقليد حالت بين ذكائها وبين الحقائق العالية حتى رأيناها تدرج مع البلداء في مدرج واحد من تأليه صور صماء عمياء بكماء جامدة قد صنعتها الايدي، فقامت تحسب أن هذه الصور تضر وتنفع ، وتجلب وتدفع ، وتقرب الى الخالق الأعظم وتشفع،

وراحت تعلن أن لهذه الصور مجدا، وتستحق شكرا وحمدا ، وظلت تصنع لها ماتصنع الامم لآلهتها من ذبح القرابين ، ونذر النذور ، وتوجه

القلوب ، وإخبات الصدور ، وتملق القلوب .

ثم ساورت تلك العقائد قلوبها حتى صارت الانفس فيها لا تنبسط لشيء انبساطها لتمجيد تلك الالهة ولا تنقبض لشيء انقباضها للطاعن فيها أو النقص من تكريمها

هذه حال القوم الذين أمر هذا الرسول أن يقوم فيهم منذرا وداعيا الى معرفة الله تعالى وتوحيده ، وكانت قريش تعرف هذا الاسم الجليل الدال في هذه اللغة على واجب الوجود موجد السموات والارض ولكن لم تكن تعرف ماينبغي أن يكون عليه جلال الذي يعبر عنه بهذه الكلمة من الكمال والبعد عن مشابهة الحوادث ، وقد جرها الجهل بالله تعالى وسننه وآياته الى ماجر كثيرا من الامم اليه من جهل كثير من الحقائق .
وإني ماأشبه نتائج الجهل به عز وجل الا بسلسلة طويلة يستدرج بها ذلك الجاهل الى أسوإ النهايات اذا لم تتداركه الاسباب من عناية الرءوف الرحيم جلت آلاؤه ، وتعالت أسماؤه

ولقد كاد حظ قريش من هذه السلسلة ـ سلسلة الجهل ـ يصل بها الى مستقر لاتغنيها فيه الرفعة على أمثالها ممن ضرب الجهل خيامه عند خيامهم ، ولا تجديها القوة اليسيرة التي كانت تجدها في اجتماعها ذلك . كاد الاتكال على الاصنام يعفي كل آثار الفطرة منها ، ويطمس كل رسوم الذكاء ، ويذهب بما تركه فيها من المحاسن بعض فضلاء الاسلاف قبل عهدهم بهذه الالهة التي فتنوا بها . أصبحت لا تعي ما فضل الله ، وما رحمة الله ، وما عناية الله ، وغدت بعيدة عن معرفة ما الروح ، وما خصائص الروح ، وما عبادة الروح للاحد المحيط بكل شيء ، وراحت

معرضة عن العلم بمراقي الامم واتساع دائرتها ، وعن معرفة وظيفتها من تتميم ارادة الفاطر باظهار البدائع على يدها ، وظهور آلائه وآثار عنايته عليها ، وأصبح قصارى ما يجول بفكر الواحد من هؤلاء القوم أحد شيئين يشيلان في ميزان العقلاء : شيء يرضي به وهمه في التزلف الى تلك الحجارة التي اتخذها آلهة ، وشيء يرضي به وهمه في الكبرياء ، ولم يدر مغرورهم أن التزلف الى تلك الحجارة وأمثالها هو منتهى التسفل العقلي ، وأن تلك الكبرياء لا تجديهم شيئا اذا دهمهم داهم خارجي ، كما وقع لهم يوم « أبرهة »

هذه السلسلة الطويلة من نتائج الجهل بالله تعالى وسننه وآياته اصبحت قيداً لمداركهم قد احكمت حلقاته فهم لا يستطيعون ما داموا موجودا أن يبرحوا ما هم فيه لان جاذبا منه يجذبهم من حيث لا يرونه كلما تحركوا

هذه هي السلسلة التي اقتضت عناية الباري أن تظهر آية عظيمة في قدها وتخليص تلك الفطر من قيدها . واقتضت الحكمة البالغة والتدبير الاسمى أن يكون ذلك بواسطة من أنفسهم . وأن تجري الهداية على سننها في الاولين فيلاقي الواسطة ما يلاقي ويصبر ما يصبر ويتم الله ما يريد . ولذلك لما قام هذا المصطفى يعلن هذه الدعوة لقي تلك الصوادم ، وما تلك الصوادم ؟ جهل وغرور وكبرياء وعتو وقسوة وفظاظة وتعصب للمألوف ونفرة من الوعظ والنصح وإباء امام الانذار وطغيان وبهتان وعدوان وإقدام على قتل الذي يذكر آلهتهم بما يكرهون

أي قلب لولا التأييد الرباني يجد الى الصبر سبيلا امام هذه الصوادم؟ وأي ناصية لولا العون الرحماني تظهر للقاء هذه الصوادم ، وأي امرأة غير « خديجة » ترى بعلها في جوف هذه الغوائل ثم لا تزيده الا مدداً على

القيام بوظيفته وايناسا بوقوفها معه في وجه كل خصم لدود

أوذي (عليه صلوات الله وتسليماته) بأنواع الاذى لما أسمعهم الدعوة ، تكاثر المفتاتون عليه والمفترون ، وظاهر سوادهم الجاحدون والمستترون من أقرب اقربائه، ظهر الجافون المتباعدون عنه ، والهازئون به والساخرون منه ، دع عنك البعداء ، ومن اكل قلبهم حسد أو بغضاء ، قال المفترون هو يطلب الملك علينا ، وقالوا عن الوحي الالهي هو شعر جاء به اليناء وقد حشروا ماعرفوه من العيوب وأرادوا عزوها اليه لينفروا الناس منه وينتقموا الآلهتهم التي بدهم بجحودها ، وكشف لهم عوارجمودهاء وأيسر مافعلوه سبهم إياه والهزء به والافتراء عليه ومجافاته ثم مجافاة من لم يجانه

فعلوا كل هذا وهو متدرع بالصبر ،مثابر على الصدع بالامر ،وفي هذا كانت معه هذه الزوجة الشريفة الفاضلة تعلم محبي الحق كيف يكون الصبر من أجله ، وتهدي الى الاجيال الآتية اجمل صورة لثبات الجأش أمام الصعوبات

ويا ما أحلى الصبر اذا كانت عاقبته كعاقبة صبر هذا الرسول الكريم فقد كانت العقبى ذلك الفوز العظيم الذي يقل في الدنيا من لم يسمع خبره ولنعم عقبى الصابرين

— خلاصة الدعوة —

أما الدعوة الشريفة التي أعلنها فهذه أصولها :

(١) العلم بأن لاشيء يستحق التأليه الا الله الخلاق العظيم الذي لايشبه الحوادث ولا يشبهه شيء منها .

(٢) العلم بأن هذا الباريء المصور ذو عناية خاصة بالنوع الانساني ومن عنايته به اتحافه بصنوف الهدايات ومنها الهداية بواسطة وحي أعلى للرسل المصطفين

(٣) العلم بأن هذا الداعي الجديد الى الله هو رسول مصطفى قد أرسله الله بدين يدعو الى السعادة في هذه الحياة وحياة أخرى يوم الجزاء

(٤) العلم بأن الايمان بهذا الرسول يقتضي الاذعان والتسليم الى كل ما جاء به

هذه أصول الدعوة التي كان مأموراً أن يبدأ بها الناس وهي ملخصة بهاتين الجملتين الشريفتين « لا اله الا الله محمد رسول الله » فمن قالهما مطمئنا بهما قلبه دخل تحت اللواء المحمود لواء المحمدية الذي يظل مئات الملايين في يومنا هذا

والرسالة المحمدية لم تكن لقريش ولا للعرب خاصة بل هي للناس كافة ، ولكن البدء بالعشيرة الاقربين كان هو الذي تقتضيه الحكمة حتى اذا أجابوا كانوا عونا للدعوة لا عونا عليها

الفصل الرابع والعشرون

بعد عشر سنين

بعد عشر سنين من عهد الرسالة كان المؤمنون قد كثروا واخذ العناد من الخصوم يزيد ، وجعل الحسد يلتهب في قلوبهم لهذا النجاح الذي كانوا يحسبونه محالا وكم يحسب أمثالهم مثل هذا الحسبان :

كان الجاحدون في نار من ذلك الحسد ، والمؤمنون في جنة من

الفرح بنعمة الله ورحمته ـ كان الجاحدون يفكرون كيف يزهقون هذا الروح الجديد ، والمؤمنون ينتظرون من مولاهم إعلاء شأنه ـ كان الجاحدون حيارى في هذا الداعي فطوراً يسبونه وطوراً يهزؤن به ، وأحيانا يرجعون الى أنفسهم ويحاسبون حسهم وعقلهم فيه، فيجدونه بعيدا عن المين وسائر المظان التي كانوا يظنون ، وكان المؤمنون من يقينهم في حظ عظيم من الطمأنينة وانشراح الصدر وفرح الضمير ـ كان الجاحدون يرجعون الى تلك الحجارة فيشكون اليها المحمديين وما أتوه من مخالفة قومهم وتأييد ذلك الرجل الذي لا يذكر آلهتهم الا بسوء، وكان المؤمنون يرجعون الى من لا تدركه الابصار متوجهة اليه وجوههم ، مسلمة اليه قلوبهم ، لا يتوكلون الا عليه ، ولا يأخذون الا بسننه ـ كان الجاحدون عكوفا حول تلك الاصنام الجامدة ، وكان المؤمنون يقولون سبحان الله سبحان الله عما يصفون ، تعالى الله علواً كبيرا ـ كان الجاحدون كثيري الغم والهم ، وكان المؤمنون مع شدة ما لاقوه من الاذى فرحين مستبشرين قد أبدل الله لهم مرارة الصبر حلاوة : وذلة القلة عزة .

وفي أواخر تلك السنين العشر الشداد كان على سرير الاحتضار شخص عزيز جدا عند المؤمنين ولم يشمت الجاحدين في تلك الايام شيء مثل مغادرة هذا الشخص لذلك العالم الاسلامي الذي نشأ وترعرع بينهم بالرغم منهم

كان في هذا الشخص العزيز روح ترفرف في هذا المحيط الصغير تارة ترفع البصر الى مقرها الاقدس عند المحيط الاعظم فتحاول الطيران اليه وتارة تلقي به على هذا المحيط الذي أنست به فتظل مرفرفة عليه وجانحة الى العكوف لديه ، وكان جاذب من قلوب هذا العالم الاسلامي يتمنى بقاءه،

جاذب من أمر الله وسنته يقضي بطيرانه ، وأمر الله أعلى واليه المصير

هل عرف القاريء من هذا المودع العزيز ؟ ذلك كان شبح سيدتنا « خديجة » فقف أيها القلم خاشعا ، لقد ماتت من تركت للفضائل حياة لا تفنى ، لقد انتهى هذا العمر الذي أمدك بهذه المواد السامية ، ولن نجد لك أيها القلم شرفا بعد هذه السيرة الا اذا سرت بنقل التاريخ المحمدي

***

سبحان رب الكون هذا حكمه في الروح قد سيمت بهذا الواقع
مرآتها هذا الشخوص بها ترى زمنا وترجع للمحيط الواسع

لقد مرت روح سيدتنا « خديجة » بهذه الدار فرأينا منها مانقلناه للقاريء والآن هي لدى المحيط الواسع فهل تتجلى اليوم على هذا العالم الذي مرت به وترى أن تلك الكلمة التي قاست في سبيلها مع بعلها الكريم ماقاست قد أعلاها الله تعالى وعظم شأنها ونصرها العرب وغير العرب وأصبحت برور الارض وبحورها مملوءة كل هذه العصور الى يومنا هذا بمن يقول من جميع اجناس البشر « لا إله الا الله محمد رسول الله » ؟

وقد ولدت سيدتنا « خديجة » من زوجها الكريم بنين وبنات وبقيت لها من بنتها السيدة « فاطمة الزهراء » ذرية مباركة في أكثر أقاليم الارض والحمد لله ، ولكن هل تتجلى اليوم تلك الروح الشريفة وترى أن كل المؤمنين يعدون اليوم أولادها ؟ . فالسلام عليك ياأم المؤمنين ، سلام الله ورحمته وتحياته على روحك الطاهرة ياأماه

﴿ تمت السيرة الشريفة ﴾

{ فهرس سيرة السيدة خديجة }